THE HAPPY PRINCE & OTHER TALES

2020
2.1.2020

أوسكار وايلد

الأمير السعيد

وقصص أخرى

ترجمة
حسن البحيري

دار الرافدين

أوسكار وايلد

الأمير السعيد

وقصص أخرى

ترجمة:
حسن البحيري

www.daralrafidain.com

الأمير السعيد

وقصص أخرى

Happy Prince

And other stories

أوسكار وايلد

ترجمة: حسن البحيري

الطبعة الأولى: بيروت ـ لبنان، 2018

First Edition: Beirut - Lebanon, 2018

© جميع حقوق النشر محفوظة للناشر، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة، إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله، بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من أصحاب الحقوق

لبنان ـ بيروت / الحمرا

تلفون: 345683 1 961+ / 541980 1 961+

بغداد ـ العراق / شارع المتنبي شارع حسن باشا الجديد

تلفون: 07810001005 / 07830070045

daralrafidain@yahoo.com
info@daralrafidain.com
www.daralrafidain.com
dar alrafidain
Dar.alrafidain
l - daralrafidain@دارالرافدين

تنويه: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر.

ISBN: 978 - 1 - 77322 - 437 - 4

اوسکار وایلد

الفهرس

المقدمة 7

الأمير السعيد THE HAPPY PRINCE 11

العندليبة والوردة THE NIGHTINGALE AND THE ROSE 29

المارد الأناني THE SELFISH GIANT 41

الصديق المخلص THE DEVOTED FRIEND 51

الملك الشاب THE YOUNG KING 73

المقدمة

بقلم الأستاذ خليل هنداوي

شاء صديقي الأديب الأستاذ «حسن البحيري» أن يساهم في نقل جانب من أدب الأديب الإنكليزي «أوسكار وايلد» إلى الأدب العربي. ولهذا الأديب جوانب مختلفة تظهر في شعره وقصصه ومسرحياته. ولعل أغرب جانب فيه «فنه» الذي يتجلى في كل ما يكتب، و«حياته الفنية» التي اتصلت بحياته الطبيعية، فكان من هذا الاتصال ذلك الاضطراب الذي ملأ حياته، وهدم الواقع وما خلف هذا الواقع من تقاليد اجتماعية اصطدم بها. وكان من هذا الاضطراب ما ذاقه من ألم وسجن، لأن المجتمع لا يريد له هذه الحياة المطلقة، ولأن حياته المطلقة لا تخضع لهذه القيود الاجتماعية المصطنعة فكتب بذلك حياته الأدبية التي تتصل بناحيتين: الناحية الفنية التي تخلق اللذة المكتفية لصاحبها، والناحية الاجتماعية التي قاومت المجتمع ورياءه. ومن العجيب أن تستقر هذه النفس في السجن، فتفقد العنف والمقاومة، وتخرج إلى الحياة مرة ثانية نفساً إنسانية هادئة عميقة، لا تنقم ولا تغضب، بل تصطنع الرفق والرأفة، وتكمل بقية أيامها هادئة ساكنة... وتتلاشى وهي في ميعة الصبا المتوقد؛ على حين كان من المنتظر أن تعصف وأن تتمرد، ولكن هذه الحياة آثرت السلم؛ كأنها لا تريد أن تعكر «الجمال» الذي كان معبوده في حياته وأدبه.

ترك «أوسكار وايلد» فيما تركه من تراثه الأدبي الفني أقاصيص صغيرة تركت صداها المعجب على قلتها. وفي مقدمتها هذه القصص الأسطورية التي تنهج نهج

الكاتب الدانيماركي «أندرسون» محبوب الصغار والكبار، وكاتب القصة الخيالية للتسلية والعبرة. وأمثال هذه القصص لا يكتبها أصحابها للصغار وحدهم، وإنما يتلوها الكبار فيجدون فيها اللذة والمتعة. ومن هنا ذهب النقاد إلى أن «أوسكار وايلد» قد تأثر إلى مدى بعيد «بأندرسون» أسلوباً، وذهاباً في الغرض، ولكن هذا التأثر ينفرد بما عرف عن «أوسكار وايلد» من إحساس عنيف، وبراعة فنية تتجلى في التعقيد الفني، بينما تغلب على «أندرسون» تلك البساطة العميقة التي هي أساس عبقريته.

وربما ذهب بعض النقاد إلى أن يرى في تلك الرموز الخفية التي استخدمها «أوسكار وايلد» في أقاصيصه ما يسلِّط الضوء على حياة الشاعر المعقدة، لأنها تقبس عن نفسه، وتعبر عن أهوائه.

في طليعة أقاصيصه هذه القصة الموسومة «بالأمير السعيد» التي تتجلى فيها المحبة الصافية والتضحية التي تنقص الناس كثيراً. والتضحية والمحبة مثلان رائعان تؤمن بهما الإنسانية، ولا تكتمل إلا بهما. وما هي الحياة إذا أجدبت من المحبة؟ أو خلت من التضحية؟ ولعل منها أيضاً قصته الثانية «المارد الأناني» الذي شاء أن تكون حديقته لنفسه، ومنع الأطفال أن يستمتعوا بظلالها، حتى ذوَت وخوت على عروشها، ولم يجدها في إعادة الحياة والنضرة في الحديقة كلها، وعادت نفس المارد تردد: «في حديقتي ألوف الأزهار الجميلة... لكن الأطفال هم أجمل أزهاري...».

أما قصة «العندليبة والوردة» فتذهب إلى أبعد مدى يتصوره الخيال في تمثيل فضيلة التضحية، ثم يؤسفك أن تذهب هذه التضحية عبثاً في النفوس الضائعة. تلك قصة عندليبة روت الوردة الجافة بدم قلبها حتى تزهر وتنضر، ثم تُقَدَّم وردة حمراء لحبيب... ولعل «أوسكار وايلد» يمثل في عندليبته حياة ذلك الفنان الذي يقدم قلبه ودمه للناس، ثم لا يعرف الناس عن هذه الهدية شيئاً...

وهل كان ألم الفنان إلا في أن يعيش حياة مثالية سامية، لا يؤمن بها الآخرون؟ وهل كانت هذه العندليبة إلا النفس التي ينطوي عليها الشاعر؟

وإنك لواجد ـ إلى هذه المعاني النفيسة ـ براعة في وصف الأشياء وتلوينها تلويناً شعرياً. فلا شيء عنده أدعى إلى رعشة النفس، وتلوين الطبيعة من هذه الأزهار المتناثرة والطيور والحصى، فلذلك اختار للعالم الذي يصفه تلك اللحظات التي ترنُّ فيها أسراب النحل، ويخفق فيها الحجر للحياة، وتشتعل فيها الزهرة بألوانها. ومن هذا العالم يخلق رموزه الطافحة بالأشكال الجميلة، والألوان المغرية، ثم يستعين على تقديم ذلك بلغة ناعمة فيها تموجات القيثار الحنون... ثم لا ينسى أن يرضي معبوده «الفن» قبل كل معبود... وبعد كل معبود...!

أما النقل فقد آثره صديقي الأستاذ «البحيري» بتلك اللغة الصافية، وذلك الأسلوب الرشيق الصحيح الذي تعاونت على تكوينه ثروته الشعرية، وروحه الرقيقة، وخياله المجنَّح الذي غذاه بيته السحري الذي أسماه «جوسق الإلهام»، ذلك الجوسق العزيز الغارق الآن في أحلام «جبل الكرمل»... وذلك الجوسق الشعري الذي كان يحبه صاحبي حُبَّه للشباب... والذي جلسنا فيه معاً في لحظة من تلك اللحظات القلقة، التي تقدمت عاصفة فلسطين!

أحقاً ذهب «جوسق الإلهام» إلى غير عودة؟ أحقاً لن تعود العين إلى رؤيته؟ أحقاً اختفى «الخليج» الذي يشرف عليه ذلك «الجوسق» إلى الأبد؟

هل هناك تجاوب نفسي بين نفس صاحبي، ونفس صاحب الأقاصيص؟ هذا الفنان الذي كان لا يحب إلا نفسه قد انقلب ليقدم نفسه كالعندليبة التي صبغت الوردة بدم قلبها... وأصبح لا يرى قيمة الحياة النقية إلا في طهارة كطهارة هؤلاء الصغار الذين يبدعون جمال الإنسانية، بعد أن غاب هذا الجمال في ظلم الناس... وطغيان الأقوياء...!

وإني لأرجو حين أقدِّم هذه الأقاصيص ـ للقارئ العربي ـ أن يجد فيها لوناً جديداً من الألوان الفنية الدسمة، تحمل إليه عالم الفنان كيف يكون.

دمشق: رمضان 1372/حزيران 1953

«خليل الهنداوي»

الأمير السعيد

THE HAPPY PRINCE

الأمير السعيد

على شرفٍ من المدينة، وفوق عمودٍ شاهق انتصب تمثال الأمير السعيد... لقد كان بأجمعه مُذهَّباً برقائق الذهب النُضار، وكانت عيناه لازَوَرْدَتين برَّاقتين، وتوهجت ياقوتةٌ كبيرةٌ على مقبض سيفه، كان حقاً موشَّعَ دهَشٍ وإعجاب.

ـ إنه جميلٌ كديك الجِواء.

كما أشار أحد أعضاء المجلس البلدي، الذي أحبَّ أن يرتَفِد ذُكْرةً وبُعْدَ صيت، باستحواذه على مشاعر فنية، وأردف، مخافة أن يخاله الناس غير عمليّ، وواقع الأمر أنه ليس كذلك، أردف بقوله:

ـ إلا أنه لا غَناء فيه ولا جَداء!

وسألت أمٌّ رؤومٌ ولدها الطالب للمستحيل:

ـ لِمَ لا تكون كالأمير السعيد؟ فالأميرُ السعيد لم يحلُمْ قط بطلب شيءٍ ما...

وبرِقَ بصرُ رجلٍ خائب الأمل، ضالّ الرجاء، وهو يُحدِّق في التمثال، ويتمتمُ بصوتٍ خفيض:

ـ إنه ليسرني أن أرى في هذا الكون بعض من مُنحوا نفحةَ السعادة.

وقال ربيبو الإحسان، وهم ينسِلون خُروجاً من البِيعة، بمطارفهم الألِقة القِرمزية، ومعاطفهم البيضاء النقية، قالوا:

ـ إنه يبدو كَمَلَكٍ كريم.

فسألهم أستاذ الرياضيات:

ـ كيف عرفتمْ هذا، ولم تقع أبصاركم على مَلَكٍ كريم قط!

فأجابوا:

ـ ولكنا رأينا في أحلامنا...

فأوْلاهم وجهاً قَطوباً غَضوباً، ورشقهم بنظرٍ باسرٍ مكفهر، لأنه ينفر من الأطفال الذين يحلُمون، ولا يستحسن رؤياهم.

وفي إحدى الليالي، حلّق فوق المدينة عصفورٌ صغير من عصافير السنونو، سافر سِربه إلى مصر قبل ستة أسابيع، وتخلّف هو لأنه كان مغرم الفؤاد بأجمل قصبةِ غابٍ، رآها في بواكير الربيع، إذ كان طائراً حَذَر النهر، يلاحق يراعة صفراء، ففتنه خصرها الهضيم، وتخلّف لنجواها، قائلاً، وهو يحب أن يهدف إلى غايته دون محاورة أو مداورة:

ـ ألِيَ أنْ أحبك؟

فانحنى لجهة القصبة، وحوّم حولها ودَوّم، ماسّاً الماء بجناحيه ومحدثاً داراتٍ فضيّة... واستمر هذا الغزل، واستدامت هذه النجوى الصَّيف بطوله.

وشقشقت عصافير السنونو صائحة:

ـ ياله من غرام عجيب؟! إنها مُعْتدِمةٌ كثيرة الأقرباء.

ولقد كان النهر، يقيناً، غاباً كثيفاً من القصب. وعند حلول الخريف خفّت جميعُها قُطُوعاً على جناح النوى راحلة. ولما مضت شَعَرَ بالوحدة، ودَبَّ إليه الملل، فبرِمَ بحب فاتنته وقال:

ـ ليس لها. رجْع جوابٍ في حديث... وإني لأخشى أن تكون بي لاهيةً غير مبالية، فهي تميل مع كل ريح وتنثني لهبّة كل نسيمٍ.

ولقد كانت حقاً تبدي أرشق انحناءاتٍ في مهب كلّ ريح. ثم أتبع قوله:

ـ لا أنكر أنها أليفة، ولكني أحب التنقل، وعلى زوجي أن تكون محبة له كذلك.

وأخيراً سألها:

ـ أتصحبينني؟

فهزت القصبةُ رأسها آبيةً غير راضية، لشدة تعلّقها بوطنها، فغمْغَم صائحاً:

ـ لقد كنتِ معي هازلة غير جادة... فوداعاً... إني مُقْلعٌ إلى الأهرام.

ثم انطلق مبتعداً. طار النهار بطوله، ولمّا أسدَفَ الليل وأغْدَفَ الظلام، وصل إلى المدينة فتساءل:

ـ تُرى أين أحُلُّ؟ آمُل أن تكون المدينة قد أُهِلَتْ لذلك!

ورأى التمثال على العمود السَّامق فقال:

ـ سأحط هنا، إنها لمحلَّة جميلة، وملعب للهواء الطلق.

وحطَّ بين قدمي الأمير السعيد. ثم ناجى نفسه وهو ينْتَفِضُ ببصره ما حوله، متهيئاً لوَسْنةِ الكرى:

ـ إنَّ لي لمنامةً ذهبية.

ولكن قطرة كبيرة من الماء قطَرَت عليه وهو يضع رأسه تحت جناحه فصاح:

ـ يا للعجب! ليس في السماء مُزنة واحدة، والنجوم مضيئة سنية، ومع هذا فهي ليلة ممطرة. حقاً إن الجوَّ في شماليّ أوربا لعجيب رهيب! وما كلِفَ بالمطر إلا قصبةُ الغاب... تلك التي كان هذا الكَلَفُ عنوان أنانيتها... ورمز أثَرَتِها...

وسالت قطرةٌ أخرى فقال:

ـ ما غناء تمثال لا يرد عني رذاذَ المطر؟ فلأبحث عن قمة مدخنة. ودفّ للطيران، ولكن قطرة ثالثة نضحت قبل أن ينشر جناحه. فصعّد بصره فرأى... وَيْ! ماذا رأى؟

كانت عيون الأمير السعيد مغرورقة بالدموع... وكانت الدموع تنساب على وجنتيه الذهبيّتين... وبدا وجهه فاتن الحسن في ضياء القمر... فأفعم قلب السنونو بالأسى والأسف، وظل كالمنزوع به، ثم سأل:

ـ من أنت؟

ـ أنا الأمير السعيد.

ـ وما بكاؤك إذن... فلقد بللتني؟

فأجاب التمثال:

ـ لمّا كنتُ على قيد الحياة، وكان لي قلبٌ إنسانيّ، لم أكن أعرف الدموع، فلقد عشت في قصر الرفاهية، حيث لم يُسمح للأسى بالوُلوج، ولقد قضيت أيامي لعباً ولهواً في الحديقة، مع أترابي، وأمضيت لياليّ رقصاً وسمَراً في ردْهة المَقْصف. وحول الحديقة أُقيمَ سور شامخٌ باذِخٌ، لم يمرّ ببالي أن أسأل يوماً عما وراءه من وجود... فالجمالُ يُهيْمِن على كل ما يُحدِق بي، ورجال بلاطي يدْعونني بالأمير السعيد، وعَيْنُ اليقين أنني كنتُ سعيداً، إن جاز أن تدعى الملذاتُ سعادة... هكذا حيَيت، وهكذا قضيت... والآن وقد أُلْتُ إلى عالم الغيوب، عالمِ الأموات، أُجْلِسْتُ على هذا النَّهْضِ العالي، فأشرَفْتُ من مدينتي على كل قبحٍ وبؤس... ولأن فؤادي مصنوع من الرّصاص، فأنا لا أستطيع الاصطفاء، ولا أملك إلا البكاء.

كان السنونو جَمَّ الأدب، فلم يَجْهَرَ بصوته حين ساءَل نفسه قائلاً:

ـ ماذا؟ ألم يَكُ من صَلْد الذهب؟!

ثم أتبَع التمثال سبب القول بصوتٍ موسيقيٍّ خَفيت.

ـ هناك في طريق ألْوِيَ... بعيداً بعيداً... أقيمَ بيتٌ تحُفُّه الضِيقةُ، وتحدِقُ به العُسْرة... ومن خلال إحدى نوافذه المفتوحة، أرى امرأة جلست إلى خِوانٍ... لها وجهٌ غَضَّنه الجهد، وجعَّده العياء، ويدان خدَّدَهما وخز الإبر، لطول ما زاولت من حرفة الخياطة... إنها تُطرِّزُ الآن «زهور الحب» على جلبابٍ حريريٍّ لتلبسه أجمل وصيفات الملكة، في حفلة البلاط المقبلة. وعلى فراشٍ في زاوية الحُجرة يرقد طفلها المريض المحموم... إنه يطلب برتقالاً، وأمُّه لا تملك أن تعطيه شيئاً، عدا ماء النهر! ولهذا فهو يلحُّ في الطلب، ويغرق في البكاء... فهل لك يا عصفور السنونو الصغير أن تنتزع الياقوتة من مقبض سيفي لتمنحها إياها؟ فلقد ثُبِّتَتْ قدماي، كما ترى، على هذه القاعدة، واستحالت عليّ الحركة؟

فقال السنونو:

ـ إني منتَظَرٌ موعود، فسِربيَ في مصر يُحوّم ويدوّم، عند النيل، مناجياً زهر «اللوتس» وهو على أهبة النوم في ضريح المَلِك العظيم، والمَلك هناك مسجًّى في ناووسه الطَلّي، محنطاً بالأفاويه، ملففاً بالكتان الأصفر: يداه ذاويتان ذابلتان كأوراق الخريف، وحول مُقلَّدِه سلسلة من شاحب الزمرد الأخضر.

فقال الأمير:

ـ إنَّ الولد في أُوام الظمأ... والأمّ جَيَّاشة النفس بالحزن... فهل لك أن تلبث معي ليلة واحدة تكون فيها رسولي أيها السنونو الصغير؟

فأجاب السنونو:

ـ لا أخالني أحب الأطفال، ففي الصيف المنصرم عندما كنت مقيماً على النهر كان ولدان فظَّان من أولاد الطحان يرشقانني دائماً بالحجارة، ولكنَّهما طبعاً لم

يصيباني قط، لأننا معاشر السنونو، نحسن الانفلات من ذلك بطيراننا البعيد... وفوق هذا فأنا سليل عائلة شهيرة بخفةِ تنصّلها، ومع هذا فقد أُزْرِيَ بنا...

فحزَّ الحزن في قلب الأمير، ممَّا جعل السنونو يأسف لذلك، ويقول إن الجوَّ هنا شديد البرودة، ولكنني سأتلبَّث معك ليلةً أكون لك فيها رسولاً...

فقال الأمير:

ـ شكراً أيها السنونو الصغير...

وانتزع السنونو الياقوتة الكبيرة من سيف الأمير، وحملها بمنقاره، وطار محلّقاً فوق أسطحة منازل المدينة، ومرَّ ببرجٍ البِيعة حيث حُفِرت صورُ ملائكة على الرخام الأبيض، ومرَّ بالقصر، فسمع إيقاع الرقص، وأشرَفَتْ من الطُّنُف فتاة جميلة مع حبيبها وهو يناجيها:

ـ ما أعجب أمر الكواكب! وما أشدَّ سلطان الحب!

فأجابت:

ـ آمل أن يكون ثوبي جاهزاً للحفل في حينه، فلقد طلبت أن يطرّز عليه «زهر الحب» ولكن الخائطات كسولات.

وعبر السنونو النهر فرأى المصابيح معلقة على صارات المراكب، واجتاز الحي اليهودي فبصر بدُرابس اليهود يتساومون، وهم يزينون المال بموازين النحاس. وأخيراً أتى البيت الفقير وأبصر ما فيه: كانت الأم تغطُّ في نومها طريحة التعب، والولدُ يتوفّز على فراشه جهد العياء، فدلَفَ السنونو داخلاً، وطرح الياقوتة الكبيرة على الخوان قرب القِمْعِ، ثم حوَّم حول الفراش، وعتَّم على رأس الطفل مروّحاً بجناحيه على جبهته، فأغرق في وسْنة وادعة بعد أن قال:

ـ أراني في طريق الإبلال.

عندها قَفَل السنونو راجعاً إلى الأمير السعيد، وقصّ عليه ما فعل قائلاً:

ـ إنه لأمر عجيب؟ فمع أن الجو بارد... إلا أنني أشعر بالدفء والحرارة.

فقال الأمير:

ـ ذلك لأنك قدّمت بين يديك إحساناً...

وابتدأ السنونو الصغير يفكر حتى استغرق في النوم، إذ ليس كانْثيال الفكر دائماً ما يُنيمُهُ. ولما انْبلجَ الصباح هَبَط إلى النهر واغتسل.

ورآه أستاذ علم الطيور وهو يجتاز الجسر فقال:

ـ أسنونو في الشتاء؟ أيُّ مظهرٍ غريب من مظاهر الطبيعة؟ ثم رقم إلى الجرائد المحلية رسالةً طويلةً مبهمةً مفعمةً بحوشيّ الكَلِم، فتناقلها كل إنسان وهو لا يفهم منها شيئاً...!

كانت روح الأمل تحْفِزُ السنونو وهو يهْدِف إلى الرحيل قائلاً:

ـ سأغادر الليلة إلى مصر.

ثم طوَّف بالأنْصاب العامة والتماثيل، وقضى زمناً غير يسير جالساً على قمّة برج البيعة، مما زاد بمتعة نفسه. وكانت عصافير الدُّوريّ حيثما حلّ تُزقْزقُ مخاطبةً بعضَها:

ـ ما أمْيَزَ هذا الغريب...!

وعندما سطع القمر، طار عائداً إلى الأمير السعيد وسأله:

ـ ألَكَ في مصر لُماسَةٌ أو وَطَرٌ؟... فأنا ذاهب لساعتي...

فقال الأمير:

ـ ألا تمكث معي ليلةً واحدة أخرى أيها السنونو الصغير؟

فأجاب السنونو:

ـ إني منتَظرٌ موعود... فأترابي في مصر سيطيرون غداً مصعِدين إلى الشَّلال الثاني، حيث تقْبَعُ فرس الماء بين هَدِرِ الحشائش المائية... وحيثُ يتربَّعُ الإله «ممنون» على عرشٍ مرمريٍّ ضخم فخم، يرقب النجوم طيلة الليل... وعندما تحقق كواكب الصبح، تنِدُّ عنه صيحةٌ واحدة بالفرح، يهيمن بعدها عليه السكون... وعند الظهيرة تَرِدُ الأسودُ الصُّفر ضفاف الماء لتشرب، وهي ذات عيونٍ كالياقوت الأخضر، وزئيرها يعلو هدير الشلال...

فقال الأمير:

ـ هناك على مَدى البصر، يا عصفور السنونو الصغير، وفي منأىً عن مناكب المدينة، أرى شاباً في عِليَّة، ينحني على مقْعَدٍ مُغطىً بالأوراق، وبجانبه كأسٌ بلورية فيها ضَميمةٌ من ذابل البنفسج؛ عيناه نجلاوان حالمتان، وشفتاه حمراوان كالرمان، وشعره بُنِّيٌّ أشْعَثُ... إنه يحاول إتمام تمثيليةٍ لمدير المَمْثَلِ، ولكنه مقْرورٌ... أعجزه البرد عن الاسترسال بالكتابة... وليس في مِدفأته نار... لقد ذهب الجوع بوَعْيه... فطُرِحَ مَغمياً عليه!. ..

فقال السنونو، وكان طيب القلب، طاهر النّقيبة:

ـ أأنتزع له ياقوتةً أخرى؟ فسأمكث معك ليلة ثانيةً...

فقال الأمير:

ـ وا أسفاه! فأنا الآن لا أملك ياقوتة... وعيناي هما كلُّ ما استطعت ادِّخاره... إنهما مصُوغتان من ثمين اللأزَوَرْد، ولقد جُلِبتا من الهند، قبل ألف سنة، فانتزِعْ واحدةً منهما، واحمِلْها له، فسيبيعها للجوهرِيّ، ويشتري لناره حطباً، ثم يتِمُّ تمثيليته...

فقال السنونو:

ـ لا أراني أقوى على ذلك يا عزيزي الأمير...

ثم أجْهَش بالبكاء... واسْتَبَقتْ عَبراته...

فقال الأمير:

ـ امتثِلْ أيها السنونو الصغير، واصْدَعْ بما تؤمر.

فانتزَعَ السنونو عينَ الأمير، وحلّق بها طائراً إلى عِلّية الطالب. وسهُلَ عليه أن يدخلها، إذ كانت في الجدار كُوَّةٌ سَهَم منها داخلاً الحجرة. لم يَسمع الفتى حفيفَ أجنحةِ العُصفور، إذ كان يدفن رأسَه بين يديه، ولما رَفَع بصره، رأى اللأزَوَرْدة الجميلة مُلقاةً فوق زهرات البنفسج الذّاوية، فصاح وهو يتهلّل بشاشةً وبشراً:

ـ لقد بدأ الناس ينظرون إليّ بعين التقدير... ولا بد أنها من أحد المعجبين... والآن يمكنني أن أتِمَّ التمثيلية...

وفي اليوم التالي هبط السنونو إلى المرفأ، ووقف على صارية مرْكبٍ كبير، يتابع بنظره البحَّارةَ وهم يُخرجون بالحبال الصناديقَ الضخمة من مستودعات السفن، وكلما أخرجوا صندوقاً تداعَوْا متصايحين:

ـ هيلا ـ هوب...

وصاح السنونو:

ـ إنني غادٍ إلى مصر.

ولكن لم يُعرْهُ أحد التفاتاً. ولما طلع القمر قفل عائداً إلى الأمير السعيد وقال:

ـ هأنذا جئتُ لوَداعك.

فقال الأمير:

ـ ألا تبقى معي ليلةً أخرى أيها السنونو الصغير؟

فأجاب السنونو:

إنه الشتاء... وبحُلوله هُنا سيفاجؤُنا قارسُ البرد... والشمس في مصر دافئة على يانع أشجار النخيل... والتماسيحُ جاثِمةٌ في الوحول... تنفُض ما حولها بطرفِ كسول... والحمام الأبيض، واليمام القرنفلي يناجي نفسه الآن بسجع الهديل... وهو يرقب بناء أعشاشها في هيكل «بعلبك»...

عزيزي الأمير، عليّ أن أغادرك، وثِقْ بأني لن أنساك، وسأحمل لك عند عودتي، في الربيع المقبل، جوهرتين كريمتين، بدلاً من اللّتين تصدّقتَ بهما... وستكون الياقوتة أقنأُ احمراراً من الورد الأحمر، واللّازوردةُ أشدُّ زرقةً من البحر اللُّجَيّ... فقال الأمير السعيد:

ـ تقفُ في هذه الباحة، تحتنا، بائعة كبريت باكية، سقط كبريتها في مسْرَب ماءٍ فعطبَ، وسيضربها أبوها إذا ما عادت إلى البيت بخُفَّي حُنين! إنها عارية الرأس... حافية القدمين من جورب أو حذاء... فانتزِعْ عينِي الثانية... وجُدْ بها عليها، كي لا يضربها أبوها...

فقال السنونو:

ـ سأبقى معك ليلة. ولكني لا أستطيع انتزاع عينك... وإلا فستصبح بعْدها فاقِد البصر...

فقال الأمير:

ـ اصْدَعْ بما تؤمر أيها السنونو الصغير.

فصدَع بما أُمر، وانتَزَعَ عين الأمير الثانية، وانطلَقَ بها مُنْقَضّاً، ومَرَّ بالفتاة كالسَّهم، ملقياً بالجوهرة إلى راحة يدها... فصاحت:

ـ ما أجمل هذه القطعة الزجاجية!

وعَدَت نحو البيت ضاحكة، فعاد السنونو إلى الأمير وقال:

ـ إنك الآن فاقد البصر، ولهذا فسأظلُّ معك أبدَ العمر...

فقال الأمير البائس الحزين:

ـ لا، أيها السنونو الصغير، عليك أن تمضي إلى مصر.

فقال السنونو:

ـ بل سأظلُّ معك أبدَ العمر...

ثم رَقَدَ هاجعاً عند قدمي الأمير. وجلس طَوال اليوم التالي على كتفه، وأخذ يسْرُدُ له قِصَصَ ما رأى في بلاد العجائب... حدَّثه عن عصائب «اللَّقْلَق» من الطير الحُمْر، وهي صافنات على ضفاف النيل، تحمِلُ في مناقيرها السمكَ الذهبيّ... وعن «أبي الهول» القديم قِدَمَ الكون، وهو يغْمرُ الصحراء، يقرأ سِفْر الغيب... وينظر إلى ما وراء ستر المجهول... وعن «التُّجر» وهم يُحاذون جِمالتَهم بسيْر وئيد، حاملين في أيديهم خرَزَ العنبر... وعن مَلِكٍ «جبال القمر» القريب بسواده من «الأبنوس» وهو يَعْبُد بلورةً كبيرة... وعن «الأفعوان» الأخضر الهائل، الراقد فوق النخلة الباسقة، يلتهم من كُهّانه الشَعِرين ما يقدمون له من أقراص العسل... وعن «القُزُمِ» الذين يُبْحرون على عريض أوراق الشجر، في بحيرةٍ متسعة الأنحاء، بعيدة الأرْجاء، وهم في حربٍ دائمة مع الفَراش!

فقال الأمير:

ـ عزيزي السنونو الصغير، تُحدِّثني عن أشياء عجيبةٍ مدهشة، ولكن آلام الرجال والنساء أشد عجباً، وأكثر دهشاً من أي شيء عداها... وليس من غُموض يَعْدِل بعُمقه غموض البؤس، فطِرْ فوق مدينتي، يا عصفوري الصغير، ثم خبِّرْني ماذا ترى هناك.

فحدّق السنونو فوق المدينة العظيمة، ورأى الأثرياء الأغنياء يُقيمون الأفراح في منازلهم الجميلة، في حين يجلس المُعتَفُون المُعْوِزون على الأعتاب والأبواب! وعَبَر الأزِقّة المظلمة، فبَصُر بوجوهِ الأطفال الجائعين المعذَّبين... شاحبة ذاوية، تَرْمي مُعْتم الشوارع بنظراتٍ فاترةٍ جوفاء... واضطجع تحت ظُلّةِ الجسر ولدان متعانقان، يحاول كلٌّ منهما أن يُدْفي الآخر بذراعيه... وهما يقولان:

ـ إن الجوع ليَفري أحشاءنا.

وصاح بهما العسس:

ـ لا تَنطَرِحا هنا!

فهُرِعا... وهاما تحت المطر...

قَفَل السنونو عائداً، وقصّ على الأمير ما شهد. فقال الأمير:

ـ إنني مغطّى برقاق الذهب النُّضار، فانتزِعْها رقيقةً إثر رقيقة، تصدَّق بها على مُعْتَفي المساكين... فالأحياء يحسبون دائماً أن بمُكنةِ الذهب إسعادهم...

فانتزع السنونو نضار الذهب، ورقة تلو ورقة، حتى استُفِع لون الأمير... وبدا كئيباً قاتم الغُبْرة... فضحك الأطفال حتى تورّدت وجوههم، إذ ألقى السنونو إلى المساكين بالذهب ورقةً بعد ورقة... وضجَّ الشارع وعجَّ بفرحهم ومرحهم وهم يصيحون:

ـ إننا الآن نملك الخُبزَ...!

ـ عندها عاد الثلج، وتلاه الصَّقيع، وبدت الطرق كأنها معبدة بالفِضَّة، لِما كانت عليه من تألُقٍ والتماع، وكانت ظِرار الجليلد الطويلة مُتدليّة كخناجر البلور، من رَفارِفِ المنازل، والتفَّ بالفِراء كلُّ ذاهبٍ وآيب، ولبس صِغار الأطفال قانئ القلانِس والبرانِس، وتزالقوا على الجليد.

أما السنونو الصغير المسكين فقد أخذت رِعْشةُ البرد تسري به قليلاً قليلاً، ولكنه لم يغادر الأمير لأنه شَغَفَه حباً. لقد اختطف بعض الفُتات عن وَصيد الخبّاز على حين غفلة منه، وحاول تدفئة نفسه بِدَفيفِ أجنحته، وأخيراً أحس بأنه على أبواب الموت... فطار إلى كتف الأمير بما بقي له من شدا قوة.

وتمْتَمَ بصوتٍ خفيضٍ خَفيت:

ـ وداعاً، عزيزي الأمير، أفتسمح لي بلثم يدك؟

فقال الأمير:

قبّلني في شفتيّ، أيها السنونو الصغير، فلقد أحببتك... وإنه لمما يسرّني أن تعزم أخيراً على السفر إلى مصر... حقاً لقد أطلتَ المُكوث هُنا!

فقال السنونو:

ـ ليس إلى مصر ذهابي... إني ذاهب إلى دار البقاء... أليس الموت صِنْواً للنوم؟

ولَثَمَ شفتي الأمير، ثم خرَّ ميتاً عند قدميه!

وفي اللحظة نفسها سُمِع داخل التمثال صوتُ تَصَدُّعٍ عجيب... كما لوْ كُسِر شيءٌ ما... لم يكُ يقيناً إلا انصِداع القلب الرَّصاصيّ إلى صَدْعين، حقاً إنه لَصَقيعٌ عاتٍ رهيب!...

وفي بُكرة صباح اليوم التالي كان رئيس البلدية يتمشى في الميدان، بين لفيفٍ من الأصدقاء، مع أعضاء المجلس البلدي...

ولما مرُّوا بالعمود صعَد الرئيس بَصَره إلى التمثال، وصاح:

ـ ويح لي! ما للأمير السعيد يبدو رَثّاً مُهَلْهَلاً؟...

فصاح الأعضاء الذين كانوا دائماً يوافقون ويُقِرّون، مُصدّقين قول الرئيس:

ـ حقاً إنه لرثٌّ مُهَلْهَل...

وأخذوا يُمعنون فيه النظر...

لقد ذهب ناظراه، وسقطت الياقوتة عن سيفه، ولم يعد بعدُ مُمَوّهاً بالذهب... إنه لا يكاد يَفضُلُ على المُتسوّل المُعْتَفي!...

قال الرئيس هذا، فصدَّق عليه الأعضاء:

ـ أجل إنه لا يكاد يَفضُلُ على المتسوِّل المعتفي...

وتابع الرئيس القول:

ـ وهُنا، عند قدميه، عصفور ميتٌ... علينا أن نُصدر إعلاناً بأنه لن يُسمح الموتُ للعصافير هُنا!

فسجَّل كاتب المدينة ملاحظةً بهذا الاقتراح.

وأنزلوا تمثال الأمير السعيد لأنه كما أشار أستاذ الفن في الجامعة:

ـ أصبحَ عديمَ الجَدْوى... مُذْ أصبحَ سَليبَ الجَمال!...

وصَهَروا التمثال في الأتُون. وعقدَ رئيسُ المجلس البلدي جلسةً لإقرار ما يجب أن يَؤول إليه أمر المعدنِ، وقال:

ـ علينا طبعاً أن نخْلُفَه بتمثال آخر... ويجب أن يكون ذلكم التمثال تمثالي...

فصاح كلٌّ من أعضاء المجلس:

ـ بل تمثالي أنا...

وتخاصموا فيما بينهم... وآخر ما وصلني عنهم من أنباء هو أنهم ما زالوا بِشجارهم يختصِمون!!

قال مُقدَّم عُمال المسكب:

ـ أيُّ شيء غريب هذا؟ إنه قلبٌ رصاصيٌّ منفطر، لِنَرْمِه بعيداً، فلن يذوب في التنُّور...

وطرحوه على كومة تراب، حيث كان السنونو الميت لقي طريحاً...

قال اللّه لأحد ملائكته:

ـ ائتني بأغلى وأثمن شيئين في المدينة.

فحمل إليه المَلكُ القلب الرَّصاصيَّ والعُصفور الميت.

فقال اللّه:

ـ نِعْمَ ما اصطفيت... فسَيَصْدحُ هذا العصفورُ الصغير، أبَد الآبدين، في جنة فردوسي... وسيُسبِّحُ الأمير السعيد، بحمدي، في حاضِرَتي الذهبية!...

العندليبة والوردة

THE NIGHTINGALE AND THE ROSE

العندليبة والوردة

قال الطالب الفتى، والدموع تتساقط من عينيه الجميلتين:

ـ لقد وعدَتني بالمراقصة إذا ما أهديتها وروداً حمراً، ولكن حديقتي كلها ليست بها وردة حمراء واحدة.

آه! يا للسعادة إنها لتعتمد دائماً على أهون الأمور، وأبسط الأشياء، لقد قرأتُ كل ما جادت به قرائح الحكماء... وأصبحتُ أملك أعنَّة الفلسفة، ومع هذا فرغبتي في وردة حمراء أشاعت في حياتي الهم والابتئاس...

غداً ليلاً سيقيم الأمير حفلةً راقصة، ولا بد أن تكون حبيبتي فيمن سيحضرها من الرفاق، فإذا ما أتيتها بوردة حمراء راقصتني حتى مطلع الفجر.

إذا ما أتيتها بوردة حمراء سأقبض بكفّي على كفّيها، وأحملها بين ذراعيّ، وأجعل لها فَريصة كتفي مِسوَرة تميل برأسها عليها.

ولكن وا أسفاه! ليس في حديقتي كلها وردة حمراء.

ولهذا فسأجلس في الحفل وحيداً، وستمر بي غير مبالية ولا آبهة، وعندها سيتحطم قلبي!

ومن عشّها المطمئن على أغصان شجرة السنديان سمعته العندليبة، فأطلّت من خَلَل الأوراق، وعَندَلت مستغربة وهي تقول:

ـ حقاً إنه لمحبٌّ صادق، كم سلكتُه في أغانيّ ليلة بعد ليلة، وكم سردتُ قصته للنجوم هزيعاً بعد هزيع، حتى أبصرته أخيراً عيناي:

شعره مُرْدَعٌ كزهر الخُزامى...

وشفتاه حمراوان كالوردة التي يشتهيها...

ولكن العاطفة والتأثر نشرا على وجهه غِلالة من شُحوب العاج، والأسى طبع خاتمه على جبينه، حقاً إنه لمحب صادق... أفراحي له آلام، والذي أشدو به ترنُّماً، يقاسيه هو همّاً وحزناً. ما أعجب الحب! إنه أغلى من الزمرُّد، وأعز من الحجارة الكريمة، إنه لا يُشترى باللآلئ واليواقيت، ولا يُعرَض في المتاجر والأسواق، وكيف بذلك وهو لا يوزن حتى بموازين الذهب!...

وما لبث الطالب أن نَبَسَ مُتمتماً:

ـ سيجلس الموسيقيون فوق سُدتهم ليعزفوا على آلاتهم الوترية، وسترقص معبودتي على أنغام القيثار والكمان بخفَّةٍ تكاد معها أقدامها لا تلامس أرض المقصف، وسَيتَحَلَّق حولها رجال البلاط بأثوابهم الزاهية، ولكنها لن تراقصني لأنني لا أملك وردة حمراء أقدمها إليها.

قال هذا، ثم ألقى بنفسه على بساط الأعشاب، ودفن وجهه بكفيه، وبكى... فمر به ضبٌّ أخضر يرفع ذيله في الهواء وتساءل:

ـ تُرى ما الذي يُبكيه؟

وقالت فراشة كانت تحوم حول شعاع الشمس:

ـ حقاً ما الذي يُبكيه؟

وهمسَتْ أقحوانة إلى جارتها، بصوتٍ ناعمٍ خَفيت:

ـ حقاً ما الذي يبكيه؟

فقالت العندليبة:

ـ إنه يبكي لوردة حمراء.

فانفجر ضاحكاً، الضبُّ الذي كان على شيء من الهزء والسخرية، وصاح مع الفراشة والزهرة:

ـ ألِوَردة حمراء يبكي؟ إنه لأمر مضحك!

ولكن العندليبة أدركت سرَّ أسى الطالب، ووقفت بصمتٍ على أغصان السنديانة، وسَهَمت تفكر في مُبهم خفايا الحب، وغُموض ألغازه...

وفَجأةً نشرت جناحيها الأدكنين وحلَّقت في الهواء عابرة كالظل مَخْرَقَةَ الغابة الصغيرة، وكالظل اجتازت الحديقتين، وفي وسط الرقعة المعشبة كانت تقوم شجيرة ورد جميلة، لمحتها العندليبة فطارت إليها، وحطَّت على بُرعم من براعمها وقالت لها:

ـ أعطِيني وردةً حمراء... وسأغني لكِ أعذب أغاني.

فهزت الشجرة رأسها وأجابت:

ـ وُرودي بيضٌ بياض زبدَ البحر... وأنصع بياضاً من الثلج المكلِّل رؤوس الجبال... فاذهبي إلى شقيقتي النامية حول المِزْولة القديمة عساها أن تجود عليك بالذي تطلبين.

فطارت العندليبة إلى الوردة النامية حول المزولة القديمة وقالت لها:

ـ مُنِّي عليّ بوردة حمراء، وسأنشِدُك أرْخم أناشيدي.

فهزت الشجرة رأسها وأجابت:

ـ ورودي صُفرٌ كشعر عروس الماء، المستوية على عرش من عنبر، وأشدُّ اصفراراً من زهور النرجس المُضعَّف، المتفتحة بين الأعشاب على ضفتي نهر،

قبل أن يروِّعها الحاصد بمنجله. فعليك بشقيقتي النابتة تحت نافذة الطالب... لعلها تمنحك ما تبتغين.

فطارت العندليبة إلى الشجرة المشرفة عليها نافذةُ الطالب وقالت:

ـ جودي عليَّ بوردة حمراء... وسأرتِّل لك أحلى ترانيمي.

فهزَّت الشجرة رأسها وهي تقول:

ـ ورودي حُمرٌ كأقدام الحمام... وأقنأ احمراراً من مَراوح المرجان المتموجة في أعماق بحرٍ محيط... ولكن الشتاء قد جمَّد عروقي، والصقيع سلبَ أكمامي، والعاصفة حطَّمت فروعي، فلن تتفتح ورودي هذا العام.

فصاحت العندليبة:

ـ وردة حمراء واحدة هي كل ما أطلب... وردة حمراء واحدة... أما من سبيل للوصول إليها؟

فأجابت الشجرة:

ـ بلى، إن هنالك طريقة، لكنها رهيبة، لا أجرؤ على مفاتحتك بها...

فقالت العندليبة:

ـ أشيري بها عليّ، فإني مَنيعةُ العزيمة.

قالت الوردة:

ـ إذا رغبتِ بوردة حمراء... يجب أن تُنبِتيها على إيقاع ألحان الموسيقى، في غمرة ضياء القمر... وأن تصبغيها بقانئ دم قلبك... عليك أن تُنشديني وشوكةٌ من أشواكي مغروسة في صدرك... عليك أن تُنشديني من غِشَاشِ الليل إلى سَفَرِ الصبح... حتى تخترق الشوكة قلبك... ويجري دمك في عروقي فأمتلئ به يناعةً وحياة...

فتَلجْلجَ صوتُ العندليبة وهي تقول:

ـ ما أبهظ أن يكون الموت ثمناً لوردة حمراء! فالحياة عزيزة على كل حي... وما أبهج أن يُجلس في غابةٍ خَضِرةٍ نَضِرة، لتُراقب الشمس وهي في مركبتها الذهبية، أو القمر وهو في عربته اللؤلؤية... وما أطيب أنفاس الزّعرور... وما أحلى أزهار الخُزامى المختبئة في ثنايا الوادي... وما أجمل أوراق الشجر تسّاقط دِراكاً على رابية شجراء... ومع هذا فالحب أفضل من الحياة... وأين قلب الطائر من قلب الإنسان، إذا ما فاض به إحساس هذا الجمال!

ثم أطلقت جناحيها الأدكنين وحلّقت في الهواء، واجتازت الحديقة كالظل، وكالظل عبرت مَخْرَفَةَ الغابة الصغيرة. وكان الطالب الفتى ما زال مضطجعاً على الحشائش، حيث تركتْه، وما زالت عيناه مُخْضلَّتين بالدموع... فهتفت به:

ـ طِبْ هوىً، واسْعَد مُنىً... فستُعطى وردتَك الحمراء... سأستَنْبِتُها لك على إيقاع الألحان... وسأضرِّجُها بدم قلبي، في غمرة ضياء القمر...

وكلُّ ما أسألك إياه، مَثوبةً وحُسْنَ عُقبى، هو أن تكون محبّاً صادقاً، فالحب أحكم من الفلسفة، على ما للفلسفة من حصافة... وأشد مِرَّةً من القوة، على ما للقوة من جبروت... لقد صبغ اللهبُ جناحيه بأرجوانه، وألبسَ الوهجُ جسمه غِشاوة سابِريَّةً... شفاهُه حلوةٌ كالعسل... وأنفاسُه أرِجَةٌ كالبَخور...

فاشرأبَّ الطالب ببصره من بين الحشائش، وألقى بسمعه إلى العندليبة الغرِدة، ولكنه لم يفهم عَنْدَلتها وهي تخاطبه، لأنه لم يطّلع إلا على ما رُقِمَ في سجِلّات الكتب... أما دَوحة السنديان فقد فهمت، ولاعَهَا الحزن، وأمضَّها الجوى، لأنّها كانت جِدّ مُغرَمةً بالعندليبة التي نَضَدَتْ عُشَّها على عِرْقة الساق، فنَسَمَتْ هامسة:

ـ غنِّيني أغنية أخيرة... فسَأشعُرُ بالوحدةِ عندَ افْتِقادك!

فغنَّت لها العندليبة بصوت كأنه دَرْدَرَةُ الماء من إناءٍ فِضِّي... ولما انتهت من غنائِها، نهض الطالب من ضَجْعته، وأخرج من جيبه ورقةً وقلماً، وناجى نفسه وهو يبتعد مخترقاً ظُلَّة الشجر:

ـ إن لها شكلاً لا يُنكر جمالُه... ولكن... ألها معه إحساس؟ أغلب الظنّ لا! فهي كمُعظم الفنانين: مظهر دون جوهر... وتبجح بغير إخلاص... فهي لا تضحي بنفسها في سبيل الآخرين... وهي لا تفكر إلا بالموسيقى، وكلٌّ يعلم أن الفنانين أنانيون... ومع ذلك يجب أن لا يُنكَرَ أنَّ لِعَنْدَلَتها أحياناً ألحانٌ ساحرة! وإنه لمن المؤسف أن لا تَعْني هذه الألحان شيئاً ما... وأن تَعْجِزَ عن عملٍ ماديّ مُفيد.

ودخل الفتى غرفته، واستلقى على سَفيفةِ فِراشٍ، وأخذ يَحْدِسُ في حبه، حتى أطبق الكرى جفنيه.

ولما سطع القمر في مُستداره من رقيع السماء، خفَّت العندليبةُ إلى عُشَّة الوَرد، ولزَّت بصدرها إلى الشوكة وأخذت تغني الليلَ بطوله، والشوكة في صدرها تعمق... وتعمق... ودمُها من عروقها يَدفُقُ... ويدْفُقُ... فمال القمرُ البلوريُّ الشاحب على متكأ أفقه... وصغى!!

ترنمت أولاً بمولِد حُبٌّ في قلبَي فتىً وفتاة... فتفتَّحَتْ في أعلى خُوطٍ من أغصان الشجرة وردةٌ عجيبة، نَجَمتْ كظلِّ ورْدَةٍ تراءى على مرآةٍ فِضّية، أو ترامى على صفحة غدير.

ورقة تتلو ورقة... كالأغنية تقفو الأغنية...

كانت بادئ الأمر شاحبة كالضباب المحلّق فوْق مُنْسرِب نهر... شاحبةً كأقدام الصبّاح... فِضيّةً كأجنحة الفجْر...

أما الشجرة فقد صاحت بالعندليبة أن زُرّي بصدرك على الشوكة يا عندليبتي الصغيرة، وإلا فسيتنفس الصبحُ قبل إزهار الوردة.

فَشبَّتْتِ العندليبةُ بالشوكة صدْرها، وجهَرَ ترنُّمها أنْدى فأندى، وهي تغني أغنية ميلاد حبٍ في رُوحَي رجلٍ وامرأة.

فانضَرجَتْ صِبْغة قُرنفلية ناعمةٌ في أوراق الورْدة، كانْضراج وجهِ العريس عندما يُقبِّل عروسه... ولكن الشوكة لم تصِل بعد إلى قلبها. وظلَّ قلب الوردة أبيض، إذ لا يُضرّج قلبَ الوردة إلا دم قلب عندليبة.

وهتفت الشجرة بالعندليبة لتدأب بضغطها على الشوكة:

ـ قرّبي الصدر واضغطي، يا عندليبتي الصغيرة، فستُسفر بُلْجةُ النهار قبل كُمول الوردة.

فزادت العندليبة إنشاب الشوكة في صدرها حتى لامست قلبها، فسرى بها ألمُ نَزْعٍ مرير...

كان الألمُ يتَنزَّى... قاسياً... قاسياً... وكانتْ الأغنيةُ تتعالى... مُبَرْجمةً... لأنها ترنَّمت بالحب الذي استكمل تمامه بالموت... ولم تُطْوَ ذكرياتُه في لَحْدٍ...

أما الوردة العجيبة فقد أصبحت كورد رِحاب الشرق:

أوراقها أرجوانية الحواشي...

وقلبها قِرمزيّ كالياقوت...

ولكن صوت العندليبة أخذ يضعف ويضعف... وأغنيتها تخفت وتخفت... وبدأ جناحاها الصغيران يخفقان ويضطربان... وغشِيَتْ عينَيها غِشاوةٌ... وأحست بشيء ما يتحشرج في حُنجورها... وعندها جادت بآخر دَفْقة من ألحان:

سمعها القمر الوضّاء، فنسي الفجر... وتباطأ بالمغيب عَلَى متكأ الأفق.

وسمعتها الوردةُ الحمراء، فأرعشتها نشوةٌ... وتفتحت أوراقها لنسيم الصباح البارد...

وحملها الصدى إلى كهفه الأرجوانيّ في التلال... فأيقظ الرعاة من أحلامهم...

وانسابت خلال غاب النهر رسالةً محمولةً إلى البحر.

وهتفت الشجرة:

ـ انظري... انظري... لقد رُصِنَت الوردةُ وكملت الآن...

فلم تحِرْ العندليبةُ جواباً، لأنها كانت ملقاةً لا حَراك فيها... بين هَدِرِ الأعْشاب... والشوكة في فؤادها!

وعند الظهيرة فتح الطالب نافذته ونظر، فصاح:

ـ وَيْ! أية سَنْحةٍ من الحظ العجيب! إنها لَوَرْدةٌ حمراء لم أرَ مثلها وردةً في غُضون حياتي... إنها جميلةٌ، ولكأني متأكد من أن لها اسماً طويلاً في اللغة اللاتينية.

وانحنى ثم قطفها، ولبس قُبَّعته وجرى إلى بيت الأستاذ والوردة في يده.

كانت ابنة الأستاذ جالسة عند مدخل البيت تلفُّ حريراً أزرق على وَشيعة، وكان كلبها الصغير مُقْمِياً عند قدميها، فتوجه إليها الطالبُ مخاطباً:

ـ لقد وعَدْتِني بالمراقصة إذا ما أتيتُك بوردةٍ حمراءَ، فهاك أقنأ وردةٍ حمراء في الكون، ستضُمينَها الليلة إلى قلبك، وأثناء مراقصتي لك ستحَدِّثُك عن مدى حُبي.

فتجهَّمت دهِشَةً وأجابت:

ـ أخشى ألا تلائم لباسي! زِدْ لي هذا أنَّ ابن أختِ قيِّم القصر أرسل لي بعضاً من ثمين الجواهر... وكلٌّ يعلم أن الجواهر أعلى نفاسةً، وأغلى ثمناً من الزهور!

فقال الطالب:

ـ قسماً إنَّك لناكِرةٌ جاحدة!...

وألْقى بالوردة إلى الشارع، حيثُ سقطت في مَسْربٍ داسَتْها به عجلةُ عَرَبةٍ...

قالت الفتاة:

ـ جاحدة؟ إنكَ فظٌ غليظُ القلب... وفوق هذا... مَنْ أنت؟ إنك لا تستطيع ما يستطيعه ابن أخت قيّم القصر... فعُقدة حذائه من فِضّة...

ونهضت عن كرسيّها ودخلت البيت، فقال الطالب وهو يمضي مبتعداً:

ـ ما أسخف الحب... إنه لا يساوي نصف فائدة عِلْمِ المنطق... إنه لا يدل على شيء... وهو دائماً يتحدث عن أشياء لن تَحْدُث... ويوحي بتصديق ما لا حقيقة له... حقاً إنه وهميٌّ غير عمليّ، وما دام كل شيء في هذا العصر واقعياً عملياً، فعليَّ أن أعُود إلى الفلْسفة وأدْرُس عِلْمِ ما وراءَ الطبيعة...

وهكذا، فقد عاد إلى غرفته، وتناول كتاباً ضخما أغْبر، وابتدأ يقرأ...

المارد الأناني

THE SELFISH GIANT

المارد الأناني

اعتاد الأطفال عصرَ كل يوم أن يلعبوا، أثناء عودتهم من المدرسة، في حديقة المارد، إذ كانت حديقة طيبة التربة، كريمة المنبت، تهفو لرحابتها الأنْفس؛ فهي غدِقةٌ ورِقَةٌ، ذات عُشبٍ خَضِرٍ نضِرٍ، ازْدانَ نبتُها هنا وهناك بأزهارٍ انتثرت انتثار النجوم، ورَبَضت فيها اثنتا عشرة شجرة خوخ، تنفطر عُمْرَ الربيع عن براعم ناعمة لؤلؤية، وأُخرى قرنفلية، وتُوقَرُ في الخريف بالثمر غَضّاً جنيّاً. واستوت الطيور على الأشجار وصدحتْ بخَرَامةٍ اعتاد لها الأطفال أن يقِفوا ألعابهم ليشنِّفوا آذانهم وليقول كلٌّ لصاحبه:

ـ يا لنا هُنا من سُعداء...

وفي أحد الأيام عاد المارد من زيارته لصديقه «الغول الكورني» حيث مكث معه سبع سنوات، أفضى فيها بكل ما كان عليه أن يقول، لأن محادثته كانت محدودة... ولأنه صمَّم على العودة إلى قلعته. وعند وصوله أبصر بالأطفال يلعبون في الحديقة، فصاح بصوت أجَشّ عدا منه الأطفال هرباً:

ـ ما تصنعون هنا؟ أن حديقتي لي وحدي، وكلٌّ يعلم ذلك... ولن أسمح لأيّ كان باللعب فيها إلا لنفسي.

ومن يومئذٍ سوَّرها بسورٍ مُمرَّدٍ عالٍ علّق عليه لافتة تقول:

لَيُحاكَمَنَّ المُعْتَدون

لقد كان مارداً أنانياً!

فالأطفال المساكين لم يَعُدْ لديهم مكانٌ ما للعِب. حاولوا اللعب في الطريق ولكنها كانت غبراءَ مَرْتاء... تمتلئ بدِقاق الحَصى وغِلاظ الحجارة... فلم تهوِ إليها أفئدتهم، واعتادوا أن يحوّموا حول السور العالي إثر انتهاء دروسهم، ويستعيدوا ذكرياتهم داخل الجنة الجميلة، قائلاً كلٌّ لصاحبه:

ـ كم كُنّا هناك سعداء...

وعاد الربيع، فوافى الريفَ بصغار البراعم، وأفعَمَهُ بفراخ الطيور، إلاّ حديقة المارد فما زالت شِتاءً! نسيت الأشجار أن تتفتح كِمامُها... ولم تأبه الطيور بالغناء فيها، لأنها خلتْ من الأطفال.

وأطَلَّت مرَّةً زهرةٌ جميلة من بين الأعشاب، ولكنها عندما لمحت اللافتة أسرعت بالاختفاء في الأرض أسِفَةً للأطفال نَدِمةً، واستغرقت ثانيةً بنوم عميق.

والوحيدان اللذان طرِبا فرحاً، وسُرَّا ابتهاجاً هما: الثلج والصقيع، فلقد قالا:

ـ لقد نسي الربيع هذه الحديقة، وعلى هذا فسنعيش هنا! الحَوْل بطوله.

فضَّض الصقيعُ غَيْضَة الشجر، ونَشَر الثلجُ مطرفَه الأبيض الفضفاض على الأعشاب، ثم استدعيا ريحَ الشمال لتقيم معهما، فلبَّت!

كانت الريح ملتفةً بالفِراء... هزَمَتْ في الحديقة جَمْعَ اليوم حتى قوَّضت المدخنة، وقالت:

ـ إنها لمَحَلَّةٌ مبهِجةٌ مُسرَّةٌ، علينا أن نسألَ البَرَدَ بزيارة...

فسُئل وأجاب... وأخذ ينقر سطح القلعة نقراً متوالياً ثلاث ساعات متتابعات كل يوم، حتى حطّم معظم الصفائح والألواح! ثم عاد لافّاً دائراً في الحديقة بأقصى ما تمكن من سرعةٍ وانطلاق. كان قد زُمِّل بالبياض الشاحب الكئيب... وكانت أنفاسه كالجليد!

ـ لستُ أدري لماذا تأخَّر الربيع بحُلوله... آمُلُ أن يتغير الجوّ...

قال المارد الأنانيُّ هذا، إذ جلس ونفضَ ببصره حديقته البيضاء الباردة.

لم يعُدِ الربيع، ولا الصيف... والخريف أوْقَرَ بالثمار الذهبية كل حديقة وبستان، إلاّ حديقة المارد فلم يمنحها شيئاً... لأنه كما قال:

ـ مُغرقٌ في أنانيَّته!

وهكذا... فقد دام الشتاء، وتوالى البَرَدُ، وتتابع الصقيع، واستمرَّت ريحُ الشمال، والثلجُ رقَصَ حول الأدواح...

وذات صباح كان الماردُ في سريره مضطجعاً، وهو في صحوة اليقَظَة، عندما سمع موسيقى عذبةً محببةً، أرنَّت في مسْمَعَيْه بفتنة وسحر فخالها جوْقَة الملك الموسيقية مارَّةً عابرةً. وما كانت يقيناً إلا أغنية حسُّون صغير ترنَّم بها خارج نافذته. ولأنَّ أمداً طويلاً مرَّ منذ أن سمع طائراً يشدو في حديقته، فقد خُيِّل إليه أن هذه الأغنية أعذبُ ما تردَّد في الكون من ألحان...

وعندها أوقف البَرَدُ رقصه، واحتبست ريح الشمال عصْفها، وفاح شذاً ناعمٌ حالِمٌ، انساب إليه من الكُوَّة، فقال:

ـ كأني بالربيع قد هلَّ بغُرَّته.

ثم قفز من سريره واستشرف بنظره...

ـ ماذا رأى؟

ـ رأى أدهَشَ مشهد!

فمن كُوَّةٍ صغيرة في السور المُمَرَّد تسلَّل الأطفال واستَوَوْا على أغصان الشجر... فعَلى كلِّ شجرةٍ وصل إليها بصرُه كان طفلٌ. وكانت الأشجار في نشوة

الفرح لِعودة الأطفال إليها مرةً ثانية، مما جعلها تغمر نفسها بالبراعم والزهور، وتَهومُ بأغصانها مُرَوِّحةً فوق رؤوسهم. وكانت العصافير طائرةً مُحوِّمة، وهي تشقشق بسرورٍ وبهجة، والأزهار تشرئبُّ بتطلعها من بين الأعشاب الخُضْر وتبتسم. كان مشهداً خلاّباً، إلاّ أن الزاوية القُصْوى من الحديقة ما زال يحتلها الشتاء... وفيها يقف طفل صغير. كان صغيراً جَسَداً... لم يستطع تسلّق أغصان الشجرة فهام حولها باكياً بمرارة... والشجرةُ البائسةُ الناعسة ما زال يُدثِّرها الثلج، ويزمِّلها الصقيع... وما فتئت ريح الشمال تعصفُ بها، وتزأرُ خلالها.

وأهْدَبَت الشجرةُ أفنانها بأقصى ما تستطيع من انعطافٍ وانحناء، حتى لامست بها الأرض، أو كادت، ثم قالت:

ـ تسلَّق أيُّها الطفل الصغير.

ولكن الطفل كان مُتناهي الصّغر.

وعندما رأى الماردُ هذا ذاب حزناً وأسفاً، وقال:

ـ يا لي من أنانيّ! لقد عرفتُ الآن لماذا لم يُهيْمن الربيع على حديقتي... سأرفعُ ذلك الطفل المسكين، وبعدئذ سأقوّض هذا الرَّبَض، لتكونَ حديقتي للأطفال ملعباً ومرْبعاً إلى الأبد الأبيد.

حقاً لقد أسِف جِدَّ الأسف لما اجْتَرحَ وما بدَرَ منه، ودلَفَ هابِطاً السُّلمَ بسرعة، وفَتح الباب الأمامي بتُؤدَةٍ واحتراس، وولَجَ الحديقة. وعندما رآه الأطفال خافوا وفزعوا ونفَروا هاربين، فعادت الحديقة إلى ما كانت عليه... شتاءً!

أما الولد الصغير فهو الوحيد الذي لم يبرح مكانه، لأن عينيه كانتا ملآوَيْن بالدموع، فلم يتمكن من رؤيته مُقْدِماً، فاسترق المارد إليه الخُطا، وتناوله برفقٍ ووضعه على الشجرة، فانْفَطَرَتْ لساعتها عن البراعم، وعادت الطيور، فصَدَحت وغنَّت عليها، وبسَط الولدُ ذراعَيْه وطوَّق بهما عُنُقَ المارد وقبَّله.

وعندما رأى الأطفال الآخرون أن المارد لم يعد شريراً، عادوا راكضين، ومعهم عاد الربيع...

ـ إنها الآن حديقتكم أيها الأطفال الصغار.

قال الماردُ هذا، ثم تناول مِعْولاً ضخماً قوَّض به السور المُمَرَّد. وإذْ كان الناسُ في طريقهم إلى السوق، في الساعة الثانية عشرة من ظهيرة ذلك اليوم، رأوْا المارد يداعب الأطفال في أجمل حديقة نظرَتْها أبصارُهم.

مضى الأطفال بمُتْعةِ النهار لَعباً، وفي المساء أقبلوا على المارد يودِّعونه، فسألهم:

ـ أين رفيقكم الصغير، الولد الذي رفعته إلى الشجرة؟

لقد أحبَّه المارد حباً جمّاً... لأنه قَبَّله.

فأجاب الأطفال:

ـ لا نعلم... إنه مضى.

فقال المارد:

ـ طَمْئِنوه، وسَلُوْهُ المجيء غداً.

فقال الأطفال إنهم لا يعرفون سكَنه، ولا يعلمون أين يُقيم، ولم يسبق لهم أن أبصروه من قبل.

فأحسَّ المارد بالحُزن يُمِضُّه...

وعصْر كل يوم، عند سراح الأطفال من المدرسة، كانوا يعودون للَّعب والاسْتِباق مع المارد. أما الولد الصغير الذي أحبَّه المارد فلم يَبِنْ مرةً ثانية.

كان المارد مع الأطفال لطيفاً وديعاً. ولشدّ ما حرَّقه الشوق إلى صديقه الصغير الأول، وما أكثر ما تحدث عنه قائلاً:

ـ كم تمنيتُ أن أراه...

وانطوت سِنونَ درَجَ المارد خلالها إلى الهرم والضعف... لم تعُد لديه قُدرةٌ على اللَّعب، فجلس على مَقْعدٍ مُسَنَّدٍ يراقب الأطفال في مرحهم ولهوهم، ونفَضَ جنَّته بعين الإعجاب، وقال:

ـ إن عندي من عديد الزهر كلَّ ما جَمُل وحسُن...

ولكن الأطفال أزهارٌ تفوق كلّ زهرٍ وسامةً وقامةً وحُسْناً.

وأطلَّ في صباح شتاء من نافذته وهو يرتدي ثيابه. إنه الآن لا يُحسُّ بأيّ كرهٍ للشتاء، فقد علم أنه لم يكن إلا سِنَةَ الربيع وغفوته... وجَمام الزهر وراحتَه... وفرك عينيه فُجاءَةً بدَهَشٍ، وهو يُنْعمُ... وينْعِمُ النظر... حقاً إنه لمنظرٌ عجيب!

ففي الزاوية القصوى من الحديقة أزْبَدَت شجرةٌ كلّها ما نارَ من الزهر الأبيض، وجلَّلها ما نوَّر من مُتَفَتِّقِ الأكمام... كانت أغصانها ذهبيةً، تتدلّى منها ثمارٌ فِضِّيّةٌ، وتحت ظلالها وقف الطفل الذي أحبَّ!

فهبط المارد السلَّم مسرعاً إلى الحديقة يدفعه فرحٌ عظيم، واجتاز الأعشاب مقترباً من الطفل، ولمّا داناه سرَتْ في وجهه حمرة الغضب وصاح:

ـ من ذا الذي جَرُؤَ على جَرْحِك؟

فقد كانت آثارُ دِسَارَيْن في كفَّي الطفل... وكانت آثار دِسَارَيْن آخرين في قدميه الصغيرتين!

وأعاد المارد الصَّيحة:

ـ من ذا الذي جَرُؤَ على جرْحِك؟ أخبرني لأنتقم لك منه بسيفي الكبير!

فأجاب الطفل:

ـ كلا... إنها جِراحُ الحُبّ.

فسأله المارد:

ـ من أنت؟

سألهُ وركع أمامه... ورهبةٌ غريبةٌ تُذْهِلُه!

فابتسم الطفل وقال:

ـ لقد سمحْتَ لي مرّةً باللّعب في حديقتِك، واليومَ ستصحبني إلى حديقتي، فردوس الخلود...

وعندما جرى الأطفال في تلك العَشيّة، وجدُوا المارد طريحاً تحت الشجرة... ميّتاً... مُكفّناً بالبراعم البيض!

الصديق المخلص

THE DEVOTED FRIEND

الصديق المخلص

أطلَّ جُرَذُ الماء الهرِمِ من جُحْره ذات صباح، بعينين لامعتين خرزيتين وشاربين أغْصليْن أغبرين... وذيل طويل كقطعة من المطاط الأسود... وكانت فِراخ البط تجُول البركة سباحةً فتبدو لعين ناظرها كسربٍ من أسراب الكناري الصُّفر، وأمها، وهي ناصِعةُ البياض، قانئةُ حمْرة الساقين، كانت جادةً في تعليمها كيف تقف في الماء على رؤوسها، دائمة القول لهم:

ـ إنكم لن تستطيعوا الانتماء إلى المجتمع الأفضل، حتى تَبْرعوا في الوقوف على رؤوسكم.

وهي بين الفَيْنَة والفَيْنَةِ تُريهمْ عمليَّ التجارب! ولكن بنات الماء لم يُعِرْنَها اهتماماً. فما كانت أبداً لتدري، وهي في بواكير صغرها، جَدْوى الانتماء إلى المجتمع!

وصاح جُرذُ الماء الهَرِم:

ـ يا لهم من صغارٍ عُصاة! فأحْرِ بهم أن يموتوا غرقاً.

فأجابت البطة:

ـ لا مجال لشيء من هذا القبيل، فلا بُدَّ لأيٍ كان من تجربة بدائية، ونحن ـ معاشر الوالدين ـ لا صبر لنا.

فقال جُرذُ الماء:

ـ آه! إنني لستُ رجل أسرة، ولا ريب في أني أجهلُ شعور الآباء نحو الأبناء،

فأنا ما تزوجت قطّ ولن أقضي بقية عمري إلاّ عَزَباً! إن الحُبَّ في حدِّ ذاته سامٍ، ولكن الصداقة أسمى منه بكثير، وفي الحقيقة أن علمي لم يصل من أقطار هذا الكون إلى شيء أنبل وأندر من الصداقة الصادقة المخلصة!

وسمع عرَضاً أطرافَ هذا الحديث طائرٌ خُضاريٌّ كان على مسافةٍ منهما يعتلي غُصن صفْصافةٍ فسأل:

ـ ألكَ أن تُبيّنَ لي رأيك في واجباتِ صديقٍ مخلص؟

قالت البطة:

ـ أجلْ، ذلك عينُ ما رغبتُ في معرفته.

وانتأتْ سابحةً حتى نهاية البركة حيث وقفت على رأسها لتكونَ لفراخها مثلاً يُحْتَذى به.

فصاح جُرَذُ الماء:

ـ ما أسخفَهُ سؤالاً... إنَّ عليَّ أن أتوقَّع من صديقي أن يكون لي مخلصاً صدُوقاً.

فقال الخُضاريُّ وهو يدفِئُ على غُصنٍ فِضيّ، مُرفرفاً بجناحيه الصغيرين:

ـ وما أنت فاعلٌ ثواباً لهذا الإخلاص؟

قال جُرَذُ الماء:

ـ إني لا أفهمُك!

قال الخُضاريّ:

ـ دعْني أقُصَّ عليكْ قِصّةً في الموضوع.

فسأل جُرَذُ الماء:

ـ وهل القصةُ عني؟ فسأصغي إليها إن كانت كذلك لأني دَنِفُ الغرام بكل خيالي.

فقال الخُضاريّ:

ـ إنها تنطبق عليك.

ثم طار فأسَفَّ فحطَّ على الضِّفَّة، وأخذ يسردُ قصةَ الصديق المخلص:

ـ كان في سالِفةٍ من سوالف الزمن شابٌ شريف يدعى «هانس» ـ «Hans».

فسأل جُرَذُ الماء:

ـ هل كان عظيمَ الرِّفعة، مرموقَ المكانة؟

فأجاب الخُضاريّ:

ـ كلاَّ... فما أخال أبداً أنْ مازَتْهُ رفعةٌ، أو رَفَعَتْه ميزةٌ... اللهم إلا ما تحلَّى به من صفاء قلب، ونقاء سريرة... وما تجلَّى على وجهه المستدير من سِمات المِراح، وما يثيره في النفوس من حُبّ الدُّعابة. لقد عاش عمره وحيداً في كوخ صغير كادحاً في جنَّته كَدْحَ الجدّ، ما توالى عليه الجديدان. ولم يكن في ريفه ذاك جنةٌ كجنته تلك؛ طِيْبَ مُراعَةٍ، وحُسنَ يناعَةٍ... فقد نما فيها زهر «وليم» الجميل، والسُّورنجان، وزهر تموز، ومَتْبنة الراعي، وزهر غادة فرنسا... وقد ترعرعتْ فيها ورودٌ صُفْرٌ وأُخرى مقسية، وزهر السياج اللَّيْلكيّ والذهبي، والبنفسج الأبيض والأُرجوانيّ، ونجم فيها نبْتُ الحَمام الأزرق، والعَرار، وفم السمكة، والنرجس المُضَعَّف، وعساليج القرنفل الأحمر ترعرعت وتفتَّحتْ على توالي أزمانها. ومع مرور الشهور، كانت الزهرة تحتلُّ محل سابقتها حتى ظلَّت على الدهر، ببهيج حسنها وأريج عطرها، فتنةً لكل عين، ونشوةً لكل نفس.

كان لهانس الصغير من الأصدقاء عددٌ عديد، ولكن الطحَّان «هيو» ـ «Hugh» الكبير كان أصدقَهم إخلاصاً، فما مر يوماً بجنته إبّان خَرْفِ الثمر دون أن يتكئ على سورها، قاطِفاً ضميمةً كبيرةً من الزهر، أو خارفاً ما استطاع من الثمر، أو مالئاً جيوبه من الخوْخ والكرَز.

جرت عادة الطحّان أن يقول:

ـ على الأصدقاء الحميمين أن يجعلوا كلّ شيء قِسْمَةً مشتركةً...

فيومئ «هانس» الصغير برأسه مُوافقاً مُبتسماً مُفْعماً بسرور الشعور بألْفةِ صديقٍ يحمل مثل هذه المشاعر النبيلة... والفِكَر الجليلة!

وفي بعض الأحايين كان أهلُ الجِوار يُجيلون أفكارَهم فيما يرون من عجَبِ الأمور... من عَدَمِ إثابةِ الطحّان الثريّ لهانس الصغير بشيء... مع أنه يخْتَزنُ في مطحنته مائة كيسٍ من الطحين، ويمتلك سِتَّ بقراتٍ حَلُوباتٍ، وقطيعاً من ضَأْن الغنم! أما «هانس» فلم يكن ليلتفتَ إلى هذه التوافه، أو لِيأبَهَ بهذه الأشياء الحقيرة الصغيرة... وما من شيء يستطيع أن يُدْخِلَ إلى نفسه نشْوَةَ السرور، وفرْحة الحُبور، كتلِك الأحايين التي كان يُصغي فيها لأحاديث الطحّان عن الصداقة الحقَّة المجرّدة عن طَمَعِ الأثرة وجَشَع الأنانيّة!

وهكذا قضى «هانس» الصغير أيامه جاداً كاداً في جنَّته، فكان سعيداً خلال أيام الربيع والصيف والخريف، أما عندما يعود الشتاء، وتصبح جنتُه خاويةً على عروشها... فلا زهرَ ولا ثمرَ يبعثُ بهما إلى السوق، فقد كان يُقاسي ضَراوَةَ الجوع، وقَساوةَ الزَّمْهرير...وكمْ بات ليله طاوياً بغير عَشاء، إلا من قليل من الكمَّثرى المجفَّفة، أو بعض المكسَّرات الصّلبة... وتهيْمِنُ عليه في الشتاء وَحدةٌ شامِلةٌ قاتلة... لأن الطحان لم يكن ليزوره إذ ذاك...

جرت عادةُ الطحّان أن يقول لزوجه، في الشتاء:

ـ ليس لزيارتي «هانس» الصغير من جَدْوَى... فما أكثر الثلج!... وعندما يكون الناسُ في اضطرابٍ أو انزعاج أو ضيقٍ... يجب أن يُترَكوا لسكونِ وَحْدَةٍ لا يُعكِّر صفْوَها زُوارٌ... أو ذلك على الأقل هو رأيي في الأُلْفةِ والألآف، ويقيني أنني مالِكٌ بهذا ناصيةَ الحق، ولذلك سأنتظر حتى حُلول الربيع، وعندئذٍ

سأزوره زيارةً تَنْشُرُ السعادة في أقطار نفسه... وسيكون بمُكنتهِ منحي سلةً كبيرةً من زُهور «بُكْرَةِ الربيع».

فأجابته زوجتُه وهي تجلس على مقعدٍ وثيرٍ مُسَنَّدٍ، تجاه النار الموقدة بحطب الصَّنوْبَر الجَزْل:

ـ لا ريب أنك شديدُ الاهتمام بالآخرين، شديد الاهتمام بالآخرين حقاً... وإنه لمن المُعجب المُطرب أن يُصغى إليك وأنت تتحدث عن الصداقة... وإنه لا يخامرني أدنى شكٍ من أن القسيس نفسه ليس بمقدوره أن يجاريك في مِضْمار الحديث، وما هو ببالغٍ شأوك طَلاوةَ بيانٍ... وطَلاقةَ لسانٍ... ومع هذا فهو يعيش في دارةٍ ذات ثلاث طبقاتٍ... ويحلي خنصره بخاتمٍ ذهبيّ!

فقال أصغرُ أبناء الطحّان:

ـ ولكن... ألا نستطيع أن نستزير «هانس» الصغير فنطلب إليه المثول... فإن كان المسكين في عسرٍ وضيقٍ فعليَّ أن أُقدم له نصف نصيبي من الحَساء... وأُريَهُ أرانبي البِيض...

فصاح الطحّان:

ـ ما أغباك ولداً! لَعَمْري لا أدري أيّةَ فائدةٍ تُرجى من إرسالك إلى المدرسة، وما أخالُك بالغاً من العلم شيئاً فإن دَعوْناه إلى هُنا، ورأى نارنا الحامية، وعشاءَنا اللذيذ، ونبيذنا المُعتَّق، داخَلَهُ حسَدٌ رهيبٌ رعِيبٌ... يُفسد طبيعة كلّ من يختلج في نفسه... أو يعتلج في ضميره... ولا ريب في أنني لا أستسيغ إفساد طبيعة «هانس» وأنا أوْفى أوفيائه، وأخلص خُلَصائه، فعليَّ دائماً أن أكْلأه بعين العناية والرعاية... وأن أرى أنه لم ينْقَدْ لأي إغراء أو إغواءٍ، فضلاً عن احتمال استدانة «هانس»، إنْ جاءَنا بعض الطحين، وذلك ما لا أستطيعُه... فالطحين شيءٌ والصداقة شيءٌ آخر ويجب عدم الخلط بينهما... وهذا أمرٌ واضحٌ بيِّنٍ، لا

لَبْسَ فيه ولا إبهام... لعمري إن الكلمتين لتختلفان مبنىً ومعنىً... وما من أحدٍ إلاّ ويشهد بذلك.

قالت زوجة الطحّان وهي تسكب لنفسها كأساً كبيرةً من الجِعةِ الدّافئةِ، قالت:

ـ ما أفصح لسانك، وأبلغ بيانك، إني أُحِسُّ بأن النُّعاس يتمشى في مفاصلي... تماماً كمن يكون في كنيسة...

فأجاب الطحان:

ـ إنّ كثيراً من الناس من يُحسن العمل، ولكنَّ من يحسنُ القول فيهم قليلٌ... مما يدلُّ على أن القول أشقّ الاثنين عُسْراً... وأصعبهما مثالاً، وأكثر الأشياء رِفعةً... وأعلاها مكانةً...

ونظر عابِساً عَبْرَ المائدةِ إلى ولده الصغير الذي استحيا من نفسه فأخْفَضَ هامته، وغضَّ طرفه، وتخضَّب وجهه بحُمرةٍ قِرمزيةٍ خجلاً واستحياءً، فامتزجت الدمعة بكوب شايه؛ ومهما كان من أمرٍ فهو طفلٌ في بواكير حداثته، وحداثتُه تكفل الصفحَ عنه صفحاً جميلاً!

سأل جُرذُ الماء:

ـ أتِلك نهاية القصة؟

فأجاب الخُضاريّ:

ـ لا، بلا ريب، فتلك البداية.

فقال جُرَذُ الماء:

ـ إذن فأنت لا تُعايش جِيلَك، ولا تُساير عصرك. فخير القصص في هذه الأيام يبتدئ في النهاية، ثم يمضي حتى البداية، ويختتم بالمنتصف، ذلك هو الأسلوب

الحديث... وتلك هي الطريقة المُثلى... ولقد وصلتُ إلى هذه المعرفة من نَقَّاد كان يتمشى حول البركة مع شابٍ حدَثٍ، فلقد صال وجالَ متعمقاً في حديثه. ولا مِراء في أنه قريبٌ من الصواب، فهو ذو نظارتين زرقاوين، ورأسٍ أصلع... وكلما حاول الشاب تعليقاً على حديثه، كان يجيب:

ـ «يوه!» ـ «Pooh!».

ـ ولكن امضِ في قصتك سَرْداً، فلقد أحْبَبْتُ الطحّان حباً جماً، فأنا نفسي أحمل شتّى العواطف النبيلة... وإن بيني وبينه لتشابهاً في الشعور، وتوافقاً في المزاج.

قال الخُضاريُّ، وهو ينقل وقفته تارةً على رِجله هذه، وتارةً على الأخرى:

ـ حسناً، ولما انتهى الشتاء، وجعلت زهور «بكْرة الربيع» تتفتح نجومُها الصغيرة الشاحبة، قال الطحّان لزوجته إنه ذاهِبٌ لزيارة «هانس» الصغير.

فصاحت زوجته:

ـ إنك دائم التفكير بغيرك، فأيُّ قلبٍ عظيم كريمٍ هذا الذي تحمله في جانحتيك... هل لك أن تأخذ السلة الكبيرة لإحضار الزهور؟

وهكذا فقد جمَع الطحّانُ أشرِعَة الرَّحى الهوائية، ورَبَطها رَبْطاً محكماً بسلسلة حديديةٍ، ثم هبط الرابية والسلةُ على ذراعه.

قال الطحان:

ـ عِمْ صباحاً يا «هانس» الصغير.

قال «هانس» وهو يتكئ على فأسه؛ مُبتسماً ابتسامةً عريضةً:

ـ عِمْ صباحاً.

قال الطحّان:

ـ وكيف كنتَ أيام الشتاء؟

قال «هانس»:

ـ بصحَّةٍ وعافية... بل في غاية الصحة، ومنتهى العافية، وإنها لَمنَّة عظمى أن تتكرم بالسؤال... لقد حلَّ بي شيءٌ من عُسرِها وضيقِها، إلا أن الربيع هلَّ علينا، وأنا به سعيدٌ سعيد، فأزهاري كلها يترقرق في عروقها ماءُ النَّماء.

قال الطحّان:

ـ طالما تحدثنا عنك، «هانس»، أثناء الشتاء، وتساءلنا: كيف كانت تتوالى لياليك، وتتابع أيامك؟

قال «هانس»:

ـ ذلكم منكم عين اللطف، وكم خِفتُ أن تكونوا قد أسدلتم عليَّ سُجُف النسيان.

قال الطحّان:

ـ «هانس»، إنك لتُدهِشُني وتُذْهِلُني، فالصداقةُ لا تُنسى، وذلك أعجبُ شيءٍ في أمرها! وما أشد خوفي من أن تكون لا تفقه شعور الحياة! وبهذه المناسبة ما أجمل منظر زهورك «بُكرة الربيع».

قال «هانس»:

ـ حقاً إنها لفاتنةٌ سابية... وإنها لغاية سعودي أن تكون في حَوْزتي بهذه الكثرة! وأنا على أُهْبَةٍ إنزالها للسوق، وبيعها إلى بنت المحافظ لأستردَّ بثمنها عربتي اليدوية.

ـ تسترد عربتَك اليدوية؟ أتعْني أنك بِعْتها؟ ما أغبى أن يُؤْتى عملٌ كهذا!

ـ خيراً. فالواقع أني اضطررْتُ لهذا اضطراراً فأنتَ ترى أن الشتاء كان بالنسبة لي عسيراً جداً، ولم أكن أملِك شيئاً من مال أشتري به خبزاً! فبعتُ أوّلاً أزراري

الفضيّة من عِطاف أيام الآحاد، ثم بِعت سلسالي الفِضّي، ثم «غليوني» الكبير، وأخيراً بعتُ عربتي اليدوية، ولكني عازمٌ على استردادِها جميعاً.

قال الطحان:

ـ «هانس» سأقدم لك عربتي اليدوية، إنها ليست تامة الإصلاح، فالواقع أن الأيام قد ذهبتْ بأحد جوانبها، وفي قُضبان عجلتِها خلَلٌ، وعلى الرغم من هذا فسأقدّمها لك، وأنا على عيْنِ اليقين من أن هذا يدل على كرمي وسخائي. وأعلم أن أكثر الناس سيصمونني بمُنْتَهى الحُمْقِ والغباوة، على تفريطي بها، ولكني نسيجُ وحدي... فكأني لستُ من طبقة الناس... ولا أخال الكرمَ إلاّ جوْهرَ الصداقةِ وأصلَ المودّة. وإضافة إلى هذا فأنا قد استحضرْتُ لنفسي عربةً يدويةً جديدةً. أجلْ، اطمئن بالاً، فسأعطيك عربتي.

قال «هانس» الصغير، وقد توهَّج السرورُ على كلِّ قسِمةٍ من قسمات وجهه المضحك المستدير:

ـ حسناً، فهذا لا شكّ كرمٌ منك عظيم. وليس من العسير عليَّ أن أرْأبَ صدْعها، فما أسهل ذلك عليَّ، ففي بيتي لوحٌ من الخشب.

قال الطحّان:

ـ لوْحٌ من الخشب؟ ذلك ما أنا في حاجةٍ إليه لسقف مخزن غلالي، ففيه كُوَّةٌ واسعة، وستُبلِّلُ الحِنْطةُ إذا لم أسُدَّها! فأية سانحةٍ من سوانح الحظِّ السعيد تلك التي أجْرَت هذا على لسانك! وإنه لمن العجيب المُدْهش أن تكون الحسنةُ مجلَبَةً لحسنةٍ مثلها ـ والشيء بالشيء يُذكر ـ فلقد جُدْتُ عليكَ بعرَبتي اليدوية، وها أنتَ ذا ستجودُ عليَّ بِلوْحك الخشبيّ. ولا شكَّ في أن العربة اليدوية تساوي أضعاف أضعاف لوْحِ الخشب. ولكنَّ الصداقة الحقَّة لا تُلْقي بالاً لمثلِ هذه الأمور. فأسْرِع بإحضاره، فسأبدأ هذا اليوم بإصلاح مَخْزَنِ غِلالي.

صاح «هانس» الصغير:

ـ بِلا ريب!

وهُرعَ إلى سقيفته فاستخرج لوْحَ الخشب.

قال الطحّان، وهو ينظر إلى اللوح:

ليس هذا بِلوحٍ كبير... وأخشى بعد إصلاح سطح مَخْزني، ألاّ تبقى لك منه بقيةٌ تُصلِحُ بها العربة... ولكن طبعاً، ليس هذا ذنبي؛ والآن بعد أن جُدْت عليك بعربتي اليدوية... لا شكَّ في أنك ستتكرّمُ عليَّ ببعض الزهور، وما جزاء الإحسان إلا الإحسان. هاك السلَّة، فهلْ لكَ أن تملأها؟

فصاح «هانس» مُستاءً؟

ـ أمْلؤها؟!

فلقد كانت سلّةً كبيرةً جداً، وإذا ملأها فلن يبقى لديه من الزهر ما يُرْسِلُ به إلى السوق... وهُوَ في رغْبَةٍ مُلِحَّةٍ لاسترداد أزْرارِهِ الفضيّة.

أجاب الطحان:

ـ الواقع إني لا أخال سؤالي إياك بعض الزهور شيئاً ذا بال... وقد قدَّمْتُ لك بين يدي سؤالي عربتي اليدوية. ولستُ أظنُّني مُغالياً بطلبي إليك قليلاً من الزُّهور... وقد أكونُ مخطئاً إذ كان عليَّ أن أقلِّب وجه الفِكْرِ في أنَّ الصداقة، والصداقة الحقَّة، مُنْطلِقةٌ كلُّ الانطلاق من قيود الأنانيّة أياً كان نوعُها!

فصاح «هانس» الصغير:

ـ أيْ صديقي العزيز... أي أعزّ أصدقائي... إن أزهار حديقتي كلّها ترحب بك... وإني أفضل أن أفوز بحسن ظنك على استرداد أزراري الفضية.

وعدا في أنحاء جنّته، واجْتَنى كلَّ أزهاره الجميلة، أزهار «بكرة الربيع» وملأ بها سلّة الطحّان.

قال الطحّان:

ـ طاب يومُك يا «هانس» الصغير.

ومضى صاعداً الرابية، ولوْحُ الخشب على كتفه، والسلّة الكبيرةُ في يده.

أجاب «هانس» الصغير:

ـ طابَ يوْمُك.

وابتدأ يحفر، والمرَحُ يتمشّى في جميع أقطار نفسه... فرِحاً بالعربة اليدوية.

وفي اليوم التالي، وهو يُسمِّرُ طُنُفَ الباب، سمع صوت الطحّان يدعوه من جانب الطريق، فقفز عن السلّم، وركض عابراً الجنة، وأشرف من فوق السُّور مُستطلعاً.

وهنالك كان الطحّان، وعلى ظهرِهِ كيسُ طحينٍ كبير.

قال الطحّان:

ـ عزيزي «هانس» الصغير... ألا تحمِلُ لي كيسَ الطحين هذا إلى السُّوق؟

قال هانس:

ـ أُوه! إني آسف غاية الأسف. لأني اليوم مشغولٌ جداً، فعليَّ أن أُمَدِّدَ عساليجي، وأسقي زهوري، وأشذِّب أعْشابي...

قال الطحان:

ـ لا بأس... فمِن رأيي أنه نظراً لجميلي بعربتي التي سأجود عليك بها، فليس من خلال الصداقة أن ترْفض طلبي.

صاح «هانس» الصغير:

- أوه! لا تَفُهْ بِذاك. فما كنتُ إلاّ مُسالماً للناس جميعاً.

ثم أسرع فلبِسَ قُبّعتهُ وألقى بالكيسِ على كتفِه حتى أثقل كاهِله.

كان اليومُ شديد الحرارة... وكان غُبار الطريق كثيفاً مُخيفاً... وقبل أن يصل «هانس» إلى صُوّة المِيل السادسِ، أنْزَل الكيس واستراح. فقد كن تعباً مكدوداً!

ومهما كان من أمرٍ فقد تحامل على نفسه، وتابع سيره، حتى وصل السُّوق أخيراً. وبعد مكْثَةٍ رَدْحاً من الزمن باع كيس الطحين بثمن غالٍ، وسلَك لتوِّه طريق العودة لأنه خشي إنْ هو تأخّر أن يخرج عليه قُطّاع الطريق.

قال «هانس» لنفسه، وهو يتهيأ للنوم:

- حقاً لقد كان يوماً عسيراً. ولكني مُرتاح إلى أنني لم أخيِّب للطحّان رجاءً. فهو أعزُّ صديقٍ. وفضلاً عن ذلك فهو سيمنحني عربته اليدوية.

وفي بُكْرة اليوم التالي عاد الطحّان لتسلُّم عن كيس طحينه، ولكن «هانس» الصغير كان تعباً وصِباً، فما برح هاجماً في سريره.

قال الطحّان:

- يوه! إنك كسولٌ خمولٌ... عليك أن تجِدَّ في عملك لأني سأعطيك عربتي اليدوية، فالكسل جريرةٌ كبرى، والحقيقة أني لا أحبُّ أياً من أصدقائي أن يكون كسولاً خمُولاً! وأرجو أن تضرب صفحاً عن هذه اللّهجة البعيدة عن تنميق المجاملة، وما كان طبعاً هذا النهج ليُمرَّ ببالي لوْ لم أكنْ صديقاً. وما جدْوى الصداقة إذا لم يُظهر الإنسانُ ما في نفسه... ويكشِف ما انطوتْ عليه سريرتُه. وفي مقدُور كلّ إنسانٍ أن يكون ساحر الفصاحة، خلاَّب البيان... وأن يَسُرَّ بملَقه... وخِداعِه... ونِفاقِه...! ولكن الصديق المخلص يقول دائماً أشياء تُغْضِبُ ولا

تُرضي... ولا بأس في أن يُؤلم. وإن كان صديقاً حقاً فهو يُفضِّلُ هذا المنْحى من الصداقة، لأنه يعلم أنه يخرج بعدها بِعُقْبى حسنةٍ طيبةٍ!

قال «هانس» الصغير، وهو يفركُ عينيه ويُلقي عن رأسه بطاقية النَّوم:

ـ إني في غاية الأسف، فلقد كنتُ تعباً مجهوداً، ووددْت لو ظلَلْتُ في السرير زمناً يسيراً أسمعُ فيه شَدْوَ الطُّيور؟ هل تدري أنني أجيد عملي بعد سماعي لغناء الطُّيور؟

قال الطحان مربتاً على ظهر «هانس» الصغير:

ـ ذلك مما يَسُرُّني... لأني أردْتُك أن تصعَد إلى الطّاحون، حال ارتدائك ملابسك لتُصلح لي سطح مخزني.

كان «هانس» الصغير في غاية القلق والتحرّق للعمل في جنَّته... فأزهارُه لم تُسق منذ يومين... ولكنه لم يشأ أن يُخيّب الطحّان، فهُوَ له خدينٌ أمينٌ.

فاستفهم بصوت تسْري في رنَّته رِعْشة الخجل، وتتمشّى في نبرتِه هيبةُ التورع:

ـ وهل تظنُّ أني أتعدّى حدود الصداقة إذا قلتُ أنني مشغول؟

فأجاب الطحان:

ـ حقاً إني لا أعُدُّ طلبي إليك شيئاً كبيراً، نظراً إلى أنني سأعطيك عربتي اليدوية، وطبعاً سأذهب للعمل وحدي إذا ما رفضْتَ.

فصاح «هانس» الصغير:

ـ أوه! كلاً لم يَدُرْ هذا بخَلَدي...

وقفزَ من السرير مُسرعاً، وارْتدى ثيابه، ومضى صاعداً إلى مخزن الطحّان. وعملَ هناك طوال اليوم حتى غربت الشمس. وعند الغروب عاد الطحان ليرى كيف كان ماضِياً في عمله.

ـ أأنهيت إصلاح الكُوَّةِ في السطح؟ يا «هانس» الصغير!

قال الطحّان هذا بصوتٍ جذلٍ طَروبٍ.

أجاب «هانس» الصغير وهو يهبط السلَّم:

ـ لقد تمَّ إصلاحُه.

قال الطحّان:

ـ آه! ليس هناك من عمل يبعث على الرِّضا والاطمئنان كالعمل الذي يؤديه شخصٌ ما لغيره!

قال «هانس» الصغير وهو يجلس ويمسحُ جبهته:

ـ إن سماعك محدِّثاً لامتيازٌ وأيُّ امتياز، إنه لامتيازٌ عظيمٌ... عظيمٌ! ولكنني أخشى أن لا يكون في مقدوري أن أَصِل مثلك إلى هذه الآراء القويمة الصائبة، والفكَر الحميدة الفريدة...

قال الطحّان:

ـ إنها حتماً ستوافيك... ولكنْ عليك أن تُقاسي في سبيلها آلاماً جِساماً، وتتحمل فيها جُهداً جهيداً. إنك الآن تملِكُ الصداقة العملية. ولا بُدَّ يوماً من أن تملك أعِنَّة الصداقة النظرية!

فسأل «هانس» الصغير:

ـ أتُراني بالغها حقاً؟

أجاب الطحان:

ـ لا شكَّ عندي في ذلك. أما الآن وقد أصلَحْتَ السطح، فمن الخير أن تبقى في البيت فتستريح، لأني أريدُك أن تقتادَ غداً غنمي إلى الجبل!

لقد كان «هانس» الصغير المسكينُ وَجِلاً من التعليق على هذا بشيء ما.

وفي صباح اليوم التالي، جاء الطحّان بغنمه إلى الكوخ، فاقتادها «هانس» إلى الجبل. لقد استنفد يومَه، وصولُه الجبل وعودتُه منه، ولقد كان عند إيابه مَنْهوكَ القوى، فاستلقى على كُرسيه، واستغرق في نومه، ولم يستيقظ حتى انتشر نور النهار.

ـ قال «هانس»، وهو يدْلِفُ إلى العمل:

ـ ما أسعد الزمن الذي يمرُّ بي وأنا في جنَّتي.

وأياً كان الأمر فلم يُفسَح له مجالُ الالتفات إلى زهوره... ولم يكنْ في مقدوره أبداً الاعتناء بها، لأن صديقه الطحّان كان يُلاحقه بطلب خدماتٍ عديدةٍ، وإرساله في مهامَّ بعيدةٍ، أو يستصحبه لمساعدته في المطحنة...

كان «هانس» الصغير يضيق ذرعاً في بعض الأحايين مما يتحمله ويتجشمه... فيكاد يخرج به عن طَوْره.

وكان يُروِّعه الفرْق من أن تخاله زهورُه قد سلاها أو قلاها... ولكنه كان يُعزّي نفسَه بأنَّ الطحّان له أصْدقُ صديقٍ، وأرفقُ رفيقٍ... ولقد اعتاد خَلا هذا أن يقول:

ـ إنه عازمٌ على منحي عربته اليدوية، وذلك صنيعٌ لا يَنْبَجِسُ إلاّ عن خالصِ الكرم.

وهكذا فقد تناهى «هانس» الصغير في خدمة الطحّان، والطحّان عدَّدَ كلَّ مزايا الصداقة الحميدة، التي سجلها «هانس» في دفتر الملاحظة، لأنه كان طالِبَ علمٍ، أديباً أريباً...!

وفي أحد الأمساء كان «هانس» الصغير جالساً بجانب مِدفأته، إذْ سمع قرْعةً مُدويّةً على الباب. لقد كانت ليلةً عاتمةً قاتمةً... وكانت الريحُ صرْصراً عاتيةً، تزأرُ حوْل البيت بهوْلٍ وفزَعٍ، مما رجَّح ظنّه أولاً بأنها العاصفة! ولكنَّ قرعةً ثانيةً عادت... ثم تبعتها ثالثةٌ فاقتْهما دوِيّاً!

قال «هانس» الصغير لنفسه:

ـ إنه من أبناء السبيل...

وأسرع راكضاً إلى الباب، فرأى الطحّان ممسكاً مصباحاً في إحدى يديه، وعصاً كبيرةً في الأخرى.

فصاح الطحّان:

ـ عزيزي «هانس» الصغير... إنني في غاية الجزَع والفَزع... فلقد سقط ابني الصغير عن السُّلّم وآذى نفسه، وإني ذاهبٌ لاستدعاء الطبيب... ولكنه كان يُقيم في مكانٍ قصيٍّ بعيدٍ... والليلةُ كما ترى عابسةٌ دامسةٌ، أقام الهَوْلُ فيها لواءه! ولقد بدا لي أن من الخير أن تذهب أنت مكاني. وإنك لتَعلم أنني مُصمِّمٌ على منحِك عربتي اليدوية، ومن العدل أن تؤدي لي عملاً مقابلاً...

فصاح «هانس»:

ـ لا ريب في ذلك. وإني لأعُدّ التجاءك إليّ رفْعاً لقدْري، وإعلاءً لشأني، وسأمضي للحظتي. ولكن عليك أن تُعيرني مصباحك، فالليلة حالكة الظلام، وإني لأخشى أن أتردّى في الأُخدود!

فأجاب الطحّان:

ـ إني في غاية الأسف... لأنه مصباحي الجديد، وستكون خسارةً كبيرةً لي... إذا مسّه أيُّ عطبٍ... أو لحِقَ به أدنى ضَرر!

قال «هانس»:

ـ حسناً... لا بأس... سأمضي بدونه.

وتلفّع بفروته الكبيرة، ولبس قُبّعته الحمراء الدافئة... ولفَّ حول عُنقه لِفاعاً... وانطلق...

الليلُ حالِكُ العبوس... والريحُ عاتيةُ الهبوب... و«هانس» الصغير لا يُبصرُ طريقه إلا بعناء... ولا يُثبتُ وقفته إلا بجهدٍ جهيد... فأيّة عاصفة مُرهبة مُرعبة تلك التي كانت...؟! ومهما كان من أمرٍ فلقد كان مِقداماً جريئاً شجاعاً! وبعد إدْلاج ما يقرب من ثلاث ساعاتٍ، وصل بيتَ الطبيب فقرَع الباب.

قال الطبيب مُطِلاً من نافذة مهجَعه:

ـ مَنْ هُناك؟

ـ «هانس» الصغير يا طبيب.

ـ وما بُغيتُك يا «هانس» الصغير؟

فأجاب:

ـ لقد سقط ابن الطحّان الصغير عن سُلّمٍ فآذى نفسه، والطحّان بمسيس الحاجة إليك، على جَناح السرعة...

قال الطبيب:

ـ سمعاً وطاعةً!

وطَهَّم جواده، واحتذى حذاءه، وأنار مصباحه، ونزل السُّلم، وسلك طريقه إلى بيت الطحان، و«هانس» يدبُّ دالفاً خلفه...

ولكن العاصفة ازدادت أرْدأ فأرْدأ... والمطر هطل شآبيب قرَبٍ، و«هانس» الصغير لم يعُدْ يستطيع أن يتبيَّن وجْهته، أو يتابع الحصان. وأخيراً ضلَّ طريقه! فهامَ تائهاً في مُستنقعٍ سَبخٍ مَحْفوف بالأخطار الرهيبة الرعيبة، مملوء بالحُفَر العميقة! وهناك مات «هانس» الصغير المسكين غرقاً...!

وفي اليوم التالي وجد بعضُ رعاة الماعز جُثَّته عائمةً على أمواهِ غديرٍ كبير، فحملوها إلى الكوخ.

ما من أحد إلاّ وشهِد جنازةَ «هانس» الصغير لأنه كان محبوباً من الجميع، أما الطحان فقد كان رئيس الحِداد...

قال الطحّان:

ـ من العدل أن أُبَوّأ الصدارة لأني كُنتُ أعزَّ أصدقائه.

وهكذا فقد ترأس الموكب، بعطافٍ أسود فضفاضٍ... وكان بين الفَيْنَة والأخرى يمسحُ عينيه بمنديله.

ولما انتهى موكبُ الجنازة، وجلسُوا جميعاً مستريحين في النُّزل، متناولين النبيذ المعطّر، والكعك المُحلّى، قال الحدَّاد:

ـ لا ريب في أنَّ فقدان «هانس» الصغير كان خسارةً كُبرى لكل إنسان.

أجاب الطحّان:

ـ خسارة كبرى على كل حال، فمن حسناتي له أنني كدتُ أجودُ عليه بعربتي اليدوية. والآن... فأنا أعرفُ حقاً ما أصنعُ بها، فهي عثرةٌ في طريق بيتي، وهي من الخراب بحالةٍ لا يُرْجى رأبُها، ولا يُلأمُ صدْعُها... ولا أخالُني جانِياً من ورائها شيئاً يُذكر إن عرضْتُها للبيع. سآخذ منذُ اليوم حذري فلا أجودُ مرةً ثانيةً بشيء... إن الإنسان ليتجرَّعُ المُرّ في سبيل أن يكون كريماً...!

قال جُرَذُ الماء بعد صمتٍ طويلٍ:

ـ حسناً؟

قال الخُضاريّ:

ـ حسناً، تلك هي النهاية.

فسأل جُرَذُ الماء:

ـ وما آلَ إليه أمرُ الطحان؟

فأجاب الخُضاريُّ:

ـ أوه! حقاً إني لا أعرف، ولا أبالي أن أعرف.

قال جُرذُ الماء:

ـ من الواضح الجَلِيّ أنك عديمُ اللطف والعطْف، فاقدُ الرأفةِ والشفقة...!

فأرْدَفَ الخُضاريُّ:

ـ أخشى ألاّ تكون قد أدركت المغزى من القصة.

ـ فصاح جُرَذُ الماء:

ـ ماذا؟ المغزى! أترمي إلى القول بأن للقصة مغزى؟

قال الخُضاريُّ:

ـ بِلا ريب!

قال جُرَذُ الماء وهو يتلظّى غضباً، ويحتَدِمُ حَنَقاً:

ـ أظنُّ أنه كان عليك إخباري بذلك قبل شروعك. فلو فعلت ذلك ما أصغيْتُ إليك. حقاً علي أن أقول كالنقاد: «يوه!». ومهما كان الأمر فباستطاعتي الآن قولها. وصاح بملْءِ فيه:

ـ «يوه!».

وحرّك ذيله، ودَرَم عائداً إلى جُحْره:

وسألتِ البطة التي جاءت مُدقّةً بعد بضع دقائق:

ـ وكيف أجبت جُرَذُ الماء؟ إن مزاياه الحميدة عديدةٌ... وأنا أحمل شعور الأمومة، ولا أستطيع رؤية عزبٍ ثابتٍ على عُزوبته، دون أن تتهادى الدُّموع من عينيّ.

أجاب الخُضاريُّ:

ـ وأنا أخشى أن أكون قد أسأت إليه... والحقيقةُ هي أنني سردتُ عليه قصةً لها مغزى...

قالت البطّة:

ـ آه! ذلك دائماً ما يُرْكِبُ مراكبَ الأخطار... وإني لأقرُّها على ذلك...!

الملك الشاب

THE YOUNG KING

الملك الشاب

كان الملكُ الشابُّ مُعتكفاً في مقصورته الجميلة، وكانت تلك الليلة السابقة لتتويجه المُعيَّن، وكان رجالُ بلاطه قد استأذنوه جميعاً في الذهاب، حانين إلى الأرض رؤوسهم، حسَب الطُّقوس الرسمية في ذلك الزمان، وقد لزِموا قاعة القصر الكُبرى ليتلقنوا من أستاذ آداب السلوك آخر ما تبقى من دروس، فما زال بينهم مَن ظلَّ على سجِيَّته وجِبِلَّته. ولستُ في حاجة إلى القول بأن ذلك يُعَدُّ في رجال البلاط جريرةً لا تغتفر...

والفتى ـ لأنه كان فتىً يبدو في الربيع السادس عشر من عمره ـ لم يأسف لِفراقهم، بل استلْقى على وثيرِ نمارقه، من موْشيّ أريكته، زافراً زفرة الارتياح، استلقى هُناك بعينين وحشيتين، وفَمٍ مفتوِحٍ كخشْفِ الغابة البُنيّ، أو كصِغار الحيوان في الآجام، قنَصها القانصون لعهْدٍ غيرِ بعيد.

وحقاً إنَّ الصيادين هُم الذين عَثروا عليه بمحْضِ الصُّدفة، حافي القدمين، وشبّابتُه في يده، وهو يتبعُ راعيَ قطيع ماعزٍ أتى به، فظلَّ دائماً يظنُّ أنه أبوه. فهو ابن بنت الملك الوحيدة، لزواجٍ سريٍّ غير شرعيٍّ، ممن كان دون مُستواها.

قال بعضُهم:

ـ غريبٌ بسحْر أنغام مزْهره فتن الأميرة الصغيرة فشَغفها حباً... بينما نقل آخرون أن مِفنّاً من «ريمني» ـ «Rimini» حبَتْه الأميرة رعاية ساميةً، لعلها كانت أكثر مما يجب... وكان قد اختفى فُجاءةً من المدينة، تاركاً عمله في الكنيسة

قبل أن يُتِمّه ـ وهو من سُرقَ من حِجْر أمِّه أثناء نومها، ولم يتجاوز عمره آنذاك أسبوعاً واحداً، وأُلْقِي به إلى عُهدة زوجين فلاّحَيْن أميَّين لم يُنْجبا أطفالاً، وعاشا في مكان قصيٍّ من غابة تبعُد مسيرة يوم عن المدينة. وكما قرَّر طبيب البلاط، أو كما أشار بعضهم، بأن سُمّاً إيطالياً زُعافاً مُزج بكأس نبيذٍ معتَّقٍ مُطبَّبٍ فقتل الفتاة البيضاء التي ولدته خلال ساعة من يقظتِها... وبينما كان الخادم الأمين الذي حمل الطفل في سرْجه يُوقِف جواده المنهوك، قارعاً باب كوخ الراعي، كان جُثمان الأميرة يُودع قبراً حُفِر في باحة كنيسة مهملة وراء أبواب المدينة... حيث قيل إنه قد أُضجِع جُثمانٌ آخر لشابٍ فتيٍّ، فريد الحُسن، يتيم الجمال... كانت يداهُ مربوطتين إلى صدره بحبلٍ معقودٍ، وكان صدرُه مُثخناً بطعناتٍ عديدةٍ، حمراء نجْلاء...

أو هكذا على الأقل كانت ألسِنةُ الناس تدّاول القصة همساً. والحقُّ أن الملك إمّا أن يكون قد دُفع بدافع الأسى والحزن لجنايته العُظمى، إذ كان على فراش الموت... أو بدافع رغبته في أن لا يخرج المُلكُ من سُلالته... فأوعز بإحضار الغلام، واعترف به أمام مجلس الشورى وارثاً شرعياً. ومنذ اللحظة الأولى من الاعتراف بدَتْ على الشاب بوادر التأثُّر والانفعال بذلك الشعور الفياض بالجمال الذي قُدِّر أن يكون في حياته التأثير الذي لا يُمنع، والنفوذ الذي لا يُدفع... وكثيراً ما تحدَّث هؤلاء الذين صحِبُوه إلى جناحه الخاصّ به، عن صيْحة الفرح التي نَدَّت من شفَتيه عندما رأى ما هُيئ له من فاخر الثياب، وثمين الجواهر، وعن لهفة السرور الذي دفعَه لطرح ردائه الجلديّ الخشن، وعباءته الصَّفيقة المصنوعة من جلد الضأن. لقد كان يُحسُّ في بعض الأحايين بأنه فقد حُرِّيّة حياة الغابة. وكان دائماً عُرضةً للاهتياج من حفلات البلاط المُملّة التي تستنفد كثيراً من ساعات كل يوم من أيامه. ولكن القصر العجيب، «قصر المرح» ـ «Joyeuse» كما كانوا يدعونه، والذي وجد نفسَه الآن فيه سيّداً، بَدا لعينيه جديدَ الطِّراز، حديثَ النَّمط ببهجته.

وكلما سنحتْ له فرصةُ الانفلات من قاعة الاجتماع انحدَر من البرج الكبير، ذي المَراقي الرُّخامية اللامعة، والأُسود البرونزية المذهبة القائمة على زواياه... وتجوَّل من غرفةٍ إلى غرفة، ومن ممرٍّ إلى ممرّ، كمن كان يبحث في الجمال عن ترياق يبُلُّ به غليل نفسٍ لا ترتاح إ لاّ إذا فاءَتْ إلى ظلال الجمال.

وخلال هذهِ الرحلات الاستكشافية، كما كان يدعوها، والتي كانت في الواقع بالنسبة له رحلات حقيقيةً في أرض عجيبةٍ غريبة، كان يصحبُه في بعض الأحايين وُصَفاء ممشوقونَ هِيَفٌ، ذوو شعرٍ أنيثٍ جميل، مربوط بغلالات سابريّةٍ فضفاضة، وأشْرطةٍ حريرية هِفّافةٍ تدفُّ دفيف المرح كلما داعبتها الريح.

وكثيراً ما قام بهذه الرحلات وحيداً، يستفِزُّه شعورٌ ينبعثُ من أقاصي ضميره، شعورٌ يشبُه الوحي، بأن الوَحْدة هي التي تقود إلى معرفة أسرار الفنّ، وأن الجَمال كالحكمة، يتعشقه العابدُ المنفردُ في سكينةِ وحدته.

لقد رُوي عنه يومئذ الكثيرُ من طرائف القصص، ولطائف الحكايات... فقدْ شاعَ أنَّ محافظاً ضخم الجُثة، رهْل السمْنة، جاء ليُلقي خطاباً مُسْهباً في سكان المدينة، فبصُر به ساجداً سجدة الخشوع والتقديس أمام صورةٍ عظيمةٍ جُلبت لساعتها من «البندقية» ـ «Venica»، فكانت بشائر عبادة آلهةٍ جديدة.

وفُقِد مرة أخرى عدَّة ساعاتٍ، وبعد بحثٍ طال، وُجد في حُجرة صغيرةٍ من حجرات أحد أبراج القصر الشمالية، مُحدِّقاً كالسّاهم نشوةً أو غيبُوبةً، في جوهرة يونانية صِيغَتْ على هيئة «أدونيس» ـ «Adonis».

وشُوهد مرةً، كما تقولُ الأُسطورة، مُلْصِقاً شفتيه الحارَّتين على جبين رُخاميٍّ لتمثال أثريٍّ اكتُشِف في قاعِ نهرٍ أثناء بناء جسر حجريٍّ، ومحفور عليه اسم «بثنيان» ـ «Bithynian» عَبْدِ «هدريان» ـ «Hadrian».

ولقد أمضى ليلةً بكاملها مراقباً تأثير ضياء القمر في تمثال «إنديامون» ـ «Endyamion».

حقاً لقد كانت التُّحف النادرة تستهويه أيَّما استهواء، ورغبةً منه في احتوائها واقتنائها أرسل كثيراً من التجار... فمنهم من ولَّى وجهه شطر بحر الشمال لاستحضار الكهْرمان من صيّادي السمك الغِلاظ الشِداد... ومنهم من كانت مصرُ وجهتَه لجلب الفيروز الأخضر العجيب، حيث لا يوجد إلا في مدافن المُلوك، والذي قيل إنّ له خصائص سحريةً تسحر وتبهر... ومنهم من قصد بلاد العجم طلباً لبُسُط الدّيباج والخزف الملوَّن... وآخرون مضَوْا إلى الهند لشراء شُفوف الحرير، والعاج الصقيل، وحجارة القمر، ودماليج الزُّمُرُّد، وخشب الصندل، وصبغة الخزف الزرقاء الغالية، وشالات الوبر النفيسة النادرة...

OSCAR WILDE

الأمير السعيد

وقصص أخرى

قصّ وايلد حكايات هذه المجموعة بشكل شفاهي على أخيه في باريس كمواضيع لصالح مجلة كان يراسلها آنذاك، لكنه لم يعرف أنها ستصبح لاحقًا واحدة من علامات الأدب الغرائبي في العالم بما حملت قصصها من شاعرية بارعة وعمق رمزي وتفرد أسلوبي.

الكاتب المثير للجدل في عالم الكبار بمشاكساته وسيرته الجنونية يكتب بأسلوب ساحر وسلس وشفاف قصصًا رائعة لعالم الصغار والتي من فرط جمالها لم تمنع حتى البالغين حول العالم من الاستمتاع بها والأقبال على طبعاتها المتلاحقة والمستمرة منذ عام ١٨٨٨ لغاية اليوم معجبين تارةً ومتأثرين تارة أخرى.

ISBN 978-1-7732243-7-4